شرفة وحيدة للأيام

قصص قصيرة

عبد المنعم العقبى

2006 - 2007

دار شريف للنشر والتوزيع

شرفة وحيدة للأيام

الناشر : دار شريف للنشر والتوزيع

إدكو – شارع سعد زغلول – محافظة البحيرة

تليفون : ٠٤٥٢٩٠٠٠٦١ – ف ٠٤٥٢٩١٢٢٦٦

موبايل : ٠١٢٧٧٢٣٩٣٠

رقم الإيداع : ٢٢٦٧١ / ٢٠٠٦

الترقيم الدولى : I.S.B.N

977- 6143-38-5

تأليف: عبد المنعم العقبى

جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر

تحذير : يحذر النشر أو النسخ أو التحوير

أو الاقتباس بأى شكل من الأشكال إلا بإذن

وموافقة خطية من الناشر

إهـــــداء

○ إلى عبقرية المكان ..

حيث ترفرف روح جمال حمدان.

○ إلى أيقونة الذكرى "بحيرة ادكو"..

ووبالاً على مَن اغتالوا عهود خيرها الوفير.

عبد المنعم العقبى

غيبوبة

تأخَّرتَ اليوم يا أحمد ، بينمايترقَّبُ كلُّ شيءٍ هنا-حضورك الطفولى البهيج .. فالبابُ يحنُّ إلى نقرات أصابعك ، التى تتدفَّقُ على مسامع جَدَّتك كالنَّغمات الرَّقيقة الحانية .. ويتأهَّبُ المدخلُ لخطواتك العسكريَّة الصَّارمة ، التى تقلِّدُ بها انصرافك من طابور الصَّباح إلى الفصل .. كما يتلهَّف السُّكون المطبق إلى انطلاق شفتيك الصَّغيرتين بالأناشيد المدرسيَّة ، و أنت تدخلُ مسترجعاً ما حفَظْتَ فى حِصَّة القراءةِ ، التى تحبُّها متلهِّفاً للمعانى .. وتقفُ قِطَّتُكَ الرَّماديةُ العجوز خلف الباب، متحفِّزةً للفرار من هجماتك الوهمية،التى تلتبس عليها بين جِدِّك ودُعابتك ..تعود- كل يوم – مع آذان الظهر فى صحبة زملائك أبناء الجيران،بينما تنتظرك جَدَّتُكَ بالشُّرفة ،حتَّى تلوِّحَ لها بكلتا يديك من منتصف الشارع،معلناً عن حضورك الجديد .. وبعد طقوس دخولك ، تُبدِّل

ملابسك المدرسية، وتتوضأ كى تُصلّى الظُهرَ قبل أن تُؤْمَرَ بهِ .. ثم تجلس منتظراً مجيء خالتك هدى من عملها، حاملةً طعام الغداء، الذى يُسْكِت صيحات جوعك الحرون .. وتفتّشُ فى حقيبتها عن "قرطاس" اللُّبْ، الذى يستهويك وتوصيها دائماً به ،وبعد الغداء تملأ أرضيَّة الصالون بقشرهِ ،متحَدّياً أوامر خالتك ، فتحذّرك بحرمانك منهُ- إن لم تكُفْ عن الفوضى وشقاوة العناد .. وعندما تَمْسِك بيدك مع حقيبة كتبك، تبادرها متثائباً :-

ـ تعبان .. عاوز أنام .. نازل لعادل زميلى ألعب معاه .

وهكذا أنت دائماً تحاول تأخير أوقات المذاكرة والهروب منها .. وتختلق أسباباً واهية تنأى بك عن هذا الكابوس اليومىّ .. وعندما لا تجد سبباً واحداً تُطارد القِطّة ، فتهرب منك وتهرب حتى تقع

أنت صيداً وديعاً فى يدِ خالتك ،التى يدهشها كرهك الدائم للمذاكرة - رغم نبوغك المبكّر وطلاقة لسانك بالفصحى التى أصبحت نادرة .. وتزداد خالتك عجباً مع تساؤلاتك الذكيَّة المدهشة ، ولا تجد لديها تفسيراً منطقياً لحالتك .. فلماذا تهرب من المذاكرة ، وأنت تفهم الدُّروس جيِّداً بدون تدخُّل منها ؟!!..تتأملك صامتة وأنت تُسْرع فى قراءة الدروس، وتتمجَّل صفحةَ الأسئلة .. وتسأل نفسك وتجيبها بسرعةٍ ، مغيِّراً نبرات صوتك عند الانتقال من السؤال للإجابة ،لِتوفِّر على خالتك عناء طرح الأسئلة .. بالأمس كنت مع درس الشخصيات المصرية العظيمة ..وعندما فتنتك سيرة العقاد قلت لخالتك :-

ـ يعنى ممكن أعمل زيُّهْ وماروحش المدرسة .؟

وعندئـذٍ ضـحكت خالتـك مـن محاولاتـك المـاكرة ،وسـألتك عن السَّبب ، فقلت متأففاً :-

ـ يعنى رايح جاى .. رايح جاى .. وطابور .. وضـرب .. وعيـال غلسه .!!

ـ علشان تطلع دكتور يا حبيبى .

هذه أمنيتك يا أحمد .. وكم همَسْتَ بهـا فـى أذن خالتـك ، وأنـت تطالع جسد جدَّتك النحيل ، كلما تغشَّاه السُّكونُ المخيفُ مـع كـل غيبوبة سُكَّر .. تعلَّقتْ بك خالتك، التى تستمتع بأوقات المـذاكرة أكثر مما تفيدك ، بينما تتعجَّل أنت الخـروج مـن قيـدها القـابض على روحـك المرحـة ، لتخلـد إلى أحـضان جَـدَّتك طالبـاً حكاياهـا الجديدة .. وتدخل معهما فى الأساطير بخيالك الخصب، وتخشى

أن تخرجل القِطَّة منها .. فتخرجها من حجرتك عنوة، قبل الدخول مع جدتك إلى سر ر الحكايا .. ولذا تخافك القِطَّة ، وتفِرُّ منك رغم أنك لا تحمل لزا سوى مطاردات اللعب والهزار .. ودائماً لا تسلم جَدَّتك هى الأخرى من تساؤلاتك المدهشة ..

"أمنا الغولة عاشت فى أى زمن.؟!!"..."وأبو زيد الهلالى ليه ما حكمش مصر.؟!!" " وناقة عاشوراء إللّى شايلة الدهب ظهرت لمين .؟!!" وعندئذٍ توارى جَدَّتك حيرتها بالدهشة، ثم الضحك ..وتتركك فى حيرة هى غير مسئولة عنها .. ورغم ذلك هى مثل خالتك تماماً تستمتع بأوقات حكيها لك أكثر مما تستمتع أنت .. لقد أصبحت يا أحمد السبب الوحيد لمتعتهما وحسّهما الدائم بالحياة .. ولا يمكن لهما تصوُّر فراقك - إلاَّ

لساعات معدودة من كل أسبوع ، تعود فيها إلى القرية عصر كل خميس، لتقضى إجازة الجمعة مع والديك وأخواتك البنات .. وتستيقظ مبكراً وتُمْضِى ساعات الصباح مع أولاد القرية فى الحقول البعيدة وتعود متربأ ومرهقاً .. وتستحم لتذهب لصلاة الجمعة برفقة أبيك، وبعد الغداء تتعجَّل الساعات، لتعود لأحضان جدَّتك وهزار خالتك ومطاردات قِطَّتك العجوز إذ تدخل مساء كل جمعة على جدَّتك كالميلاد، فتنسيها هواجس الموت، الذى تذكره كثيراً فى أيامها الأخيرة .. هكذا أنت يا أحمد، لا ينقطع حضورك البهيج منذ أن جاءت بك أُمُّك من القرية، لتلتحق بأقرب مدرسة – توفِّر عليك عناء ركوب جرار الحرث يومياً ذهاباً وإياباً، مثل باقى زملائك من أبناء القرية .. لقد أعدتَ

لبيت جَدَّتك العتيق أنفاس الحياة ، وذكَّرْتَها بصخب الأطفال ومشاعر الأمومة والماضى البعيد- قبل أن تنسحب أُمك وخالاتك الثلاث إلى بيوت الزواج، تاركين لها فقط خالتك الصُّغرى هدى .. ها هى جَدَّتك اليوم تُطلُّ من الشرفة مرَّات ومرَّات، لتعلن لها عن حضورك، ولكنها لم تجدك بين زملائك العائدين من المدرسة .. أنت لم تفعلها من قبل .. فلماذا لم تعد يا أحمد .؟! .. هل أغراك - اليوم - جرار الحرث فعدت للقرية مع الأولاد .؟! .. ربَّما .. أم تُرَاك قد مللت حكايات جدَّتك المعادة بعدما أفرغت لك كل ما فى جعبتها .؟! .. هل تحاول الفرار من كابوس المذاكرة الذى لا تطيقه .؟! .. مازالت جدَّتك تخرج وتدخل .. وتدخل وتخرج ..و لا تعلن الشرفة لها عن حضورك المرتجى .. وتتمنى لو تعود

خالتك هدى الآن لتبحث عنك ، ولكنَّها لن تعود قبل ساعة على الأقل .. بدأت هواجس الخوف والقلق تطارد جدَّتك .. وراحت تتأمَّل الدِّيكور اليومي لأرضية الصَّالون .. السجادة الخضراء صفحة مسطورة بخطوط الضَّوء المتوازية، التي تخطُّها الشمس المتسرّبة من فتحات شيش النافذة، والتي تَظلُّ على حالتها هذه ،منذ الصَّباح حتى تعامد شمس الظهيرة .. لقد أحسَّتْ جَدَّتك منذ أيام أن هذه الصفحة الفريدة تدعوها لكتابة شيءٍ ما .. ولذا طلبت منك أن تعلِّمَها القراءة والكتابة .. وبدأْتَ معها وكنتَ معلماً بارعاً إذ علمتها الحروف من خلال الكلمات بخلاف ما تعلَّمتَ أنت .. وعندما كتبَت اسمها بالأمس، كنت فرحاً لهذه النتيجة السَّريعة .. ووعدتها بتكملة باقي الحروف قبل خروجك

اليوم للمدرسة .. فلماذا تأخرت- اليوم- عليها وأفْزَعْتَها عليك .؟ .. جاءتها قِطتك فى نوبة هياج مفاجئ، تتقافز لاعلى كأنها تناولت طعاماً مسموماً .. تقترب من جَدَّتك، فيمتزج القلق بالقلق ويتَّحِدُ الخوف بالخوف .. خطر إلى جَدَّتك أن القِطَّة تتنبَّأ بالغيبوبة كعادتها .. لقد أخبرتها خالتك هدى بأن القطَّة تدخل فى حركات هيستيرية غريبة مع كل غيبوبة .. كنت تنزل يا أحمد لجارتكم أم عادل وتأتى بها، لتعطى جَدَّتك حقنة الأنسولين .. فماذا تفعل جدَّتك لو لم تأت الآن .؟! ها هى قِطَّتك ترفض الدُّخول فى أحضان جدَّتك، وتسارعت قفزاتها المجنونة، وهى تهرع إلى باب البيت محاولة الخروج منه .. تبعتها جدَّتك فلاحق شهيقها الزفير وارتفع الضَّغط .. وبدأت الأشياء تنسحب

من حولها فى هدوء .. تلاشت الألوان الزاهية وصغرت أحجام الكراسى فى عينى جدَّتك .. وبدت لها المنضدة نقطة معتمة .. كل الأشياء تواصل انسحابها وكأنها تبتعد وتبتعد .. أسرعت للشرفة لتطالع حضورك من جديد .. ترنَّحتْ قدماها وسقطت بعد خطوات .. هرعت القطَّة لتسكن حزينة جوار الجسد الممدَّد .. ولن تعود خالتك قبل نصف ساعة .. فمَنْ سيحضر أم عادل وحقنة الأنسولين يا أحمد .. جسد جدَّتك الهزيل مُمَدَّد على أرضيّة الصَّالون .. بينما تتابع قطَّتك العجوز ارتفاع صدره وانخفاضه فى ترقُّب حميم .. ولم تزل صفحة الضَّوء الخضراء تحت جدَّتك. تدعوك للحضور مسرعاً .. هل تسمع النداءات يا أحمد .. أم نسيت أنَّ هذه الصفحة. هى التى جعلتك تلميذاً معلماً – بعد أن دعتك جَدَّتُك مراراً لكتابة شىء ما .؟!!

تنديل النحلة

مِنْ مِرْصَدى اليومىَّ بشُرْفَة حجرة الصَّالون المطلَّة على شارعى المظلم .
أُطالع رؤيته قبل كلِّ نوم .. يظهر لى دائماً من أقصى اليمين .. وأرى - أوَّل ما أرى - مقدّمة صدرة فاعلى ، ثمَّ تأخذ قامته جلالها الطبيعى رويداً رويداً - كلّما تقدَّم مقترباً من شُرفتِى، وهو يصِرُّ - فى كلِّ مرَّةٍ - على أنْ يؤكّد لى كروية الأرض .. يجىءُ دائماً من رحم المنطقة الخضراء، حيث تقاطعُ ظُلْمةِ شارعى مع أضواءِ الشارع المقابل .. ورغم بُعْد المنطقة أستطيعُ رؤيته جيداً ،قبل أنْ يدخل شارعى خافِتُ الأضواءِ .. وعندما يقتربُ، أراهُ بنفس ملابسه الرَّسمية، ونفس الوسامة التى تشِى بوقارٍ اجتماعى كبير ، نفس الخطوات التى تمتثلُ لحالته الانفعالية، مع حركات يديه فى الهواء، وانحناءة رأسهِ فى شموخ للوراءِ،وهو يلقى خطابَه الثورى على أصدقاء ليلهِ " اللاَّفتات وواجهات المحِلاَّت المغلقة والنوافذ وقطع الغسيل المنشورة على حبال الشُرفات والمصابيح المطفَأة والمضاءة وأعمدة النُّور والأسلاك " حشوده الجماهيرية، التى تصغى لما يقول، وتبتهجُ

بأدائهِ الرائع وإلقائهِ العذب لجُمَلٍ فصحى لا أسمعُ منها سوى جملة واحدة فقط - عندما يكون تحت شرفتى بالضَّبط .. دائماً ما أحاول الإصغاء جيداً إليهِ ربَّما أقتنصُ جملةً أخرى ،ولكنَّ اقترابَهُ وابتعادَه الفورى يحْرِمَانى المزيد .. ويبدو أنَّ ثمَّة توافق مضبوط بين حجم خطابه وعدد خطواته وموضع بدايته - فتجىءُ هذه الجملة تحت شرفتى تماماً .. عندئذٍ أكون مشغولاً بسيجارتى الأخيرة - وِرْدِىَ اليومىَّ الذى كان سبباً فى معرفتى بهِ .. و أكاد أرى تعبى اليومىَّ وهو يتسلَّل من جسدى، مبتهجاً ومقروناً بدوائر الدخان. التى تتجه - كعادتها- لليمين، ربَّما لتقابلَهُ،أو لتذكِّرَنى ببداية مجيئهِ ولحظة ميلاده عند أوَّل شارعى .. وأتأهَّبُ لأقرب مسافةٍ بينى وبينه، فيبدأ انشغالى عن تأمُّل دوائر الدُخان وتعبى الممتزج بها ..و عندما يحلُّ تحت شرفتى،أقلِّدُهُ بصوتى الهامس، مرتلاً جملته الأثيرة "أنا أُغريك بحجم وجودى فيك فهل يغرينى حجم وجودك فىَّ" .. أرَدِّدُها بعدَهُ مرَّاتٍ تلو الأخرى.. ورغم أدائى الذى لا

يساوى شيئاً أمام إلقائه الجميل - إلاَّ أنَّنى أكادُ أسمع هدير التَّصفيق الحارّ من أصدقاء اللَّيل المنصفين، فتغمرنى سعادة بالغةٌ، وتنتصبُ قامتى فى نشوةِ الغرور ، وأنا أتابع ما تَبقَّى مِنْ سحائب الدُّخان - قبل أنْ أدخل للنوم ،بينما يمضى هو فى سيرهِ .. ويتركنى مع وعدٍ مِنْهُ بدورةِ حياة جديدة فى نفس الموعد من كلِّ غد .. وفور اختفائهِ فى يسار الشَّارع، أقذفُ بعُقْبَ سيجارتى المشتعلة فى بئر الظلاَّم داخلاً ،وهكذا لا أنقطع عن طقوسى هذه ووردها اليوميِّ منذ عشر سنوات تقريباً - عندما اقترحت زوجتى تدخين سيجارتى الأخيرة خارج حجرة النَّوم لِتحفَّظَ بنقاء هوائها .. نعم لا أغيب عن طقوسى الحبيبة إلاَّ فى أيَّام سفرى وعيشتى خارج البيت .. وعندئذٍ تلازمنى هموم الغربة الموحشة، إلى أنْ أعودَ وألقاهُ فى طقوسى .. ولم يَقدْنِى التفكير يوماً إلى شخصهِ أو وظيفتهِ أو مسكنهِ، أو إلى ثبات ملابسهِ الرَّسْميَّة ، بل انْصَبَّ كلُّ اهتمامى على جُملته الآسرة،التى أرهقنى تفسيرُها ومغزَّى رحمتها بى - كلَّما رتَّلْتُها إلى نفسى

سِرّاً فى أوقات ضِيْقى .. وإلى الآن يُحيِّرنى الوصول إلى المَعْنىً بِضمير المخَاطب فيها .. وكم رحت أردِّدُها على نفسى فى الطريق للعمل، وبين الزُّملاء ،ومع تلاميذى فى الفصل ،وبين أطفالى وزوجتى حين أخْلُد معهم للطعام أو أمام التليفزيون، وفى وسائل المواصلات .. أردِّدها لأستجدى من الوقت لحظات السَّعادة المفقودة بين البشر .. ولم أبدأ التفكير فى صاحبها إلاَّ مؤخَّراً - عندما بدأ يتقافز إلى خاطرى بين الحين والآخر، فسألت نفسى مراراً - " لماذا لم يطرأ عليه أىُّ تغييرٍ خلال هذه السنوات العشر؟!! .. ولماذا يجيءُ كل يوم فى نفس التوقيت وأين يذهب؟!" .. قلت لنفسى بعد طول تفكير فيهِ - ربَّما يقتضى عملهُ هذه العودة المتأخِّرة، ولابُدَّ أنْ يكون موظفاً مرموقاً ،أو مسئولاً كبيراً فى إحدى الوزارات ،أو صحفياً كبيراً ،أو شاعراً ،ولا يمكن أن أتصوَّرهُ إلاَّ واحداً مِنْ هؤلاء .. وتمنَّيتُ كلَّ يوم أن تنقضى السَّاعات وتمرُّ مسرعةً كالبرق، حتى ألْقَيهِ فى طقوسى، وأنعَم برحمةِ جُمْلته التى لا أعرف إلى الآن سرَّ سحرها علىَّ

.. وجدْتُه - فجأةً - إلى جوارى بالمقهى، فابتهجَتْ خلجاتُ نفسى عندما بدا لى كنقطة ضوءٍ ساحرة خارج دائرتنا ،التى تمودْتُ تشكيلها مع الأصدقاء فى مجلسنا اليوميّ .. وعندئذٍ تدفَّقَتْ بسرعة جملتُه الرَّحيمة على شفتىَّ، وأنا أَلْتَفتُ إليهِ مبتهجاً بحضوره .. وأحسَسْتُ أنَّه انتبه لنظراتى ،فالْتَفتُّ للأصدقاء أُسْمعهم وِجْهَةَ نظر جديدة فى الإرهاب - موضوع الساعة، الذى انشغلت بهِ الجرائد والأنباء بعد محاولة اغتيال وزير الإعلام بالأمس ورئيس الوزراء من قبل .. ولم أدافع - بين الأصدقاء - عن تغيُّر وجهةِ نظرى، بل ابتسمْتُ فظنُّوا ابتسامتى انسحاباً أو رغبة منّى فى تحويل الحوار، إلى ردِّ فعل ساخر على الأحداث كعادتى .. وعندما عدت ملتفتاً إليه ،دعا النادل لِدفع الحساب ثم انصرف، فغادرتنى نشوة حضوره بالمقهى .. وتركَنِى لوحشةٍ وغربةٍ وحيرةٍ جديدة .. قمتُ بعدَهُ وأبديت رغبةً فى الانصراف،وتساءَل الأصدقاء عن سرِّ تشتُّتِى وأرقى هذا اليوم ،فادَّعيْت حاجتى الماسَّة إلى النَّوم .. ولم أشعرْ

بالمسافة بين المقهى والبيت.. حتى دخلت إلى شرفتى مبكِّراً،أتعجَّل وِرْدىَ المحبَّب وأتلهَّفُ لسماع جملته الرَّحيمة .. لكنَّه لم يُشرقْ على الشارع فى موعدهِ المعتاد ،فانتظرتُ مترقباً طوال اللَّيل ،وأنا أشعل سجائرى فى وحشةِ إحساسى بالفقد ، أتَذوَّقُ - للمرَّةِ الأولى - نكهةً غريبةً لِدُخانٍ مُلْتهب ،تخرج دوائرهِ فى هواء اللَّيل غير مقرونةٍ بتعبى ،الذى ظلَّ محبوساً فى قيودِ جسدى .. تأمَّلت الجدران خشية أن أكون قد ضللْتُ الطريق إلى الشارع،أو أكون قد دخلت بيتاً آخراً غير بيتى .. وطار تعبىَ المتأرِّقُ بكل محاولات النَّوم .. وفى الصَّباح داهَمَ خاطرى سِرُّ غيابهِ ،ولم أكف عن التفكير فيه طوال اليوم .. وتكرَّر غيابه عن طقوسى، وحضوره المفاجىء إلى جوارى بالمقهى.. وتكرَّر انشغالى عن الأصدقاء وغيابى فى فضاءات النشوة ،التى تغمرنى منذ رؤيته إلى أن يقوم منصرفاً .. وتكرَّر أيضاً انسحابى من الأصدقاء واصطناع حاجتى الماسَّة إلى النوم .. وعندما

لاحظ أحدُ الأصدقاء مجاورتَهُ لنا بالمقهى كلَّ يومٍ - توجَّس منهُ خيفةً وريبة، وقال وهو يشير برأسه إليه :-

ـ بلاشْ كلامْ ف السِّياسة إحنا مِتْرَاقبينْ .

واقترح الصَّديق علينا الانتقال إلى ركنٍ آخرٍ بالمقهى، فاستجبنا له منتقلين .. وتكرَّرَ انتقالنا فى الأيَّام التالية.. وكنت دائماً أتابعه مفموراً بنشوة حضوره التى اعتدتها .. وكان يقف بعد انتقالنا، ويطلُّ من الباب على الشارع للحظاتٍ ،قبل أن يعود إلى الداخل، لِيأخذ أقرب كرسىٍّ شاغرٍ يقابله .. ويقترب جالساً كنقطة الضَّوء خارج دائرتنا .. وذات يوم كان عائداً من إطلالته بالكرسى فى يده، وأعاقه النادل عن الجلوس بجوارنا فأطاح بصنيَّة الطلبات والأكواب صائحاً فيه ..-

ـ حتَّى انت .. كل الأمكان مشغولة .. وكل الناس ف وشِّىْ .

وعندئذٍ ابتسم النادل فى ردِّ فعلٍ لم نتوقعه ،وأخذهُ من ذراعه بحنوِّ الأُمِّ محاولاً تهدئته ، ولكنَّه تحرَّر من يد النادل مسرعاً للخارج،وأنا أتابع جلال قامته من خلال ظهره - حتَّى اختفى بين المارَّة .. وكباقى الحضور بالمقهى، عاد الأصدقاء إلى حواراتهم المعهودة ،بعد أن أسقطوا عنه تهمةَ التخابُر وقلت :-

ـ جايز يكون موظَّفْ خلص مرتَّبُه .

وقال أحد أصدقائى :-

ـ يمكن حاولْ التغيير يا اخوانَّا وجِهْ يقعد هنا لحَدْ ما زهَقْ .

وأكملنا منتدانا اليوميِّ بالحديث عنهُ، قبل أنْ أنصرف عائدًا إلى البيت .. وانتظرته فى شرْفَتِى كالعادة- ولكنَّه لم يجِىءْ،فأحسستُ على الفور بمرارة نكهةِ دْخَانِى.. وانتابنى سعالٌ غبىٌّ طوال نومى فأحضَرتْ زوجتى لى دواءَهُ ..وانتظرته بالمقهى بعد ذلك- لكنَّه لم يجىءْ فازدادت مرارة دُخانى وحدَّة سُعَالى الغبىِّ ومرَّت أيامٌ

وشهور على وقفتى بالشرفة، أترقَّبُ حضوره متأمِّلاً دوائر دخانى، مريـر الطَّعـم فلـم أر تعبـى الـشقىَّ بينها،وظـلَّ محبوسـاً بقيـود جسدى،فعدتُ أُفكر فى جُملة انطلاقه وصاحبها ، الـذى لم يفـارق خـاطرى بحـضوره الوسـيم طـوال النهـارات ،وأعيـانى التَّعـبُ، وأرهَقَت صوتى حـدَّةُ السُّعال الغبـىِّ الـذى لازَمنِـى لأيـامٍ ، حتَّـى حاولت أن أنشغل عن التَّفكير فيـهِ ، فلجـأتُ لقـراءة مـا تبقـى مـن الكتـاب الرائـع الـذى اسـتهوتنى صـفحاته علـى مـدى شـهور ، وأوشكت علـى الانتهـاء منـه .. ولم أذهـب للأصـدقاء بـالمقهى بعـد يأسى من عودة فضاءات النـشوة .. ولم أخـرج كعـادتى إلى الـشرفةِ، حتى انْتَـصَف اللَّيـل وقـادتنى صـفحاتُ الكتـابِ إلى بعـضها – رغـم حاجتى لإشعال سيجارة ، ورغم إرهـاق أعـضائى بتعبـىَ العنيـد .. ومضى الوقت بالوقت حتَّى وجـدْتنِى بالـشرفةِ ..ورأيتـه فجـأة فـى أقـصى اليـمين ، قادمـاً – علـى غـير العـادة – يقـود زحامـاً بـشرياً

صخيباً بالبهجة ..تحوطه أعراسٌ صاخبةٌ وتافوراتٌ متحركةٌ تشعُّ ضوءاً بدلاً من الماء .. يتقدَّمُ الموكب موشَّحاً بالورود - كالعائدُ لتوِّهِ من انتصار الفتوحات .. كلُّ الأشياء من حوله تؤكِّد ذلك - تظلِّلُ الموكبَ أغصانُ بهجةٍ تتمايل حولَهُ يُمْنَةً ويساراً ، والقامات كلُّها تبدو من خلفهِ قزميَّة ، تتساوى جميعها في طولها وفرحتها ، لكنَّها تقِلُّ عن قامته الجليلة بمقدار دهشتي ، الوجوه كلُّها ضاحكة مستبشرة ، أعرفها جميعاً وأستطيع الآن تذكُّر أسماءَ أصحابها ، بينما تطلقُ النافوراتُ أقواساً نصف دائرية ، تطرِّزُ الرؤوس بهالاتٍ لا ضوئية ولا مائية ، أحسُّ برطوبتها الرهيفة كنسمات الصيف الحانية .. رحت أتأمَّلُ دوائر دُخاني وهي تَتَّجهُ لليمين لمقابلة الموكب ، بعدما خرجت من فمي مقرونة بتعبي العنيد ، الذي يتحرَّرُ من قيود جسدي مبتهجاً بعودة الطقوس وزوال سجنهِ الطويل .. يتقدَّمُ موكبهُ نْحوي بطيئاً ، بينما يقابلهُ دُخاني بسرعة

فائقةٍ .. ويسحرنى الموكبُ ، فأودُّ لو أطير سابقاً دخانى .. وأصبرُ حتَّى يصل إلى موضع جُملتهِ تحت شرفتى بالضبط .. وقبل أن أصيح بالسعادة مرتِّلاً جملته الآسرة ،يدهشنى تبدُّدُ الزِّحام .. وتنطفىءُ الأعراس وتتلاشى النافورات .. ويبقى وحيداً و هو يصيح بجملتهِ منتشياً ، بينما يتهاوى إلى أرضية الشارع أصدقاءُ ليلهِ – "اللافتات والنوافذ المغلقة وقطع الغسيل المنشور واعمدة الكهرباء والمصابيح " - تتهاوى جميعها ببطءٍ شديدٍ مُعَلَّقةً فى الهواء كنثارالريش.. وشيئاً فشيئاً أراها تتساقط متحوِّلةً إلى أشلاءٍ آدميةٍ- "رؤوساً وجماجمَ وأذرع وسيقانَ وأفخاذاً وأكفَّ وشعوراً متناثرة، تتخلَّلُها جميعاً خيوط دماءٍ طازجة" .. وأراه تحتها يتقافزُ بقامته الجليلة ، فرحاً بالمطر الدَّموى الجديد .. يرفع يديه للأشلاء متعجِّلاً هبوطها. وهو يصرخُ بإلقائه الرائع المألوف – " ها أنا ذا قد أغرانى حجم وجودك فىَّ فخلعت نعلىَّ وحلَلْتُ

بالوادى المقدَّس طُوَى ".. وبعد صيحتهِ الأخيرة يسقطَ مِنْ قفزاتهِ ، مطروحاً على الأرض.. وتتهاوى فوقهُ الأشلاءُ المسيلةُ لخيوط الدِّماء، وتستقرَّ جميعها فوقهُ . فلا أرى شيئاً من قامته الجليلة.. وينتابنى حزنٌ شديدٌ.. وتعاودنى حِدَّةُ سُعالى الغبىِّ ، الذى يوقظ زوجتى ، فَتجىءُ بالدواء وتوقظنى بدورها ، ولكنَّنى أنتبه إلى نفسى – ممسكاً بالكتاب الذى كنت أقرأه .. وعندئذ أدركت أنَّهُ كان يجلس إلى جوارنا بالمقهى ، باحثاً فينا عن "شخصية مصر " فاحتضنت كتابه مأخوذاً بتفسير جديد .

أوتوجراف

توقفتُ مجهداً أمام واجهة المحل الكبير المطلُّ على شارع صفية زغلول - قلب الأسكندرية .. ويبدو أن تردُّدِى الدائم فى اختيار الأذواق والأسعار ،لن يحسم- لصالحى- جولة الشِّراء الصَّيفية الوحيدة ، التى تتكرَّر كل عام - مع نيلى مكافأة تصحيح الامتحانات .. رحت أتأمَّل المعروض طويلاً ،فلم أجد ما يناسبنى.. وعندما همَمْتُ بالانصراف ، لمحتها تتهادى قادمة من الداخل إلى باب المحل الخالى تماماً إلاَّ منها وعندئذٍ توقَّفتُ حتَّى التقت عينانا ففاجأنى وجهها المستدير بابتسامة ساحرة ،رافقتها غمازتا حُسْنٍ بارقتان ، تَبؤران خدَّيها بهجة آسرة.. على الفور - وقبل أن تفترق عينانا ،أيقنتُ أنَّنى أعرفها .. بالتَّأكيد أعرفها وتعرفنى .. صدمنى أنَّها خرجت لتبتسم لغيرى -إذ رفعت يدها بالتَّحية لامرأة عابرة على الرَّصيف المقابل .. وعندما أخجلنى خطأى فى تفسير نظرتها وابتسامتها ،اصطنعت النظر إلى الملابس المعروضة

بالفاترينة ،بينما وقَفتْ هى عند باب المحِلّ ، تتفحَّصُ وجوه الواقفين المتفرّجِين معى .. تنتظر مَنْ ترى على وجهه نيَّةَ الدُّخول للشراء .. قلت فى سِرِّى -"أكيد هى خبيرة فى التمييز بين وجوه المتفرّجِين ، وتستطيع كبائعة متمرّسة تحديد مَنْ يطالع الملابس لمجرد الفرجة ، و مَنْ يطالعها لأخذ قرار الشراء فى جولة قادمة، و مَنْ يرغب فى الشراء اليوم" .. وعندما قادتنى محاولات التذكُّر، اختلست - إليها - نظرةً خاطفةً . جِجابُها لا يخفى شبابها المتَّقد ولا يعوقنى عن تقدير عمرها،الذى يشى بالعشرين، أو أصغر بعام أو عامين .. وجهها الصَّبوح مألوف لى ، وتقاسيمه المنبسطة-دائماً كالابتسام - توشك أنْ تنطق قائلة - " أنت تعرفنى وحاولْ جيداً أن تتذكرنى ".. عدتُ أطالع الملابس ،فأحسستُ أنَّها تختلس النظرات لى من بين الواقفين.. أكيد تحاول هى الأخرى.. وتُجهد الذّاكرة لتسترجع معرفتها بى .. غبتُ فى اتجاهات التذكُّر دونما

جدوى .. فالتقت عيناننا من جديد ، واصطنعتُ متابعة الملابس المعروضة ، بينما اصطنعت هى متابعة المارِّين بالشارع .. أتوقع أنَّها ستصل قبلى فى مبراة التَّذكُّر . فملامح وجهى وشكلى العام ثابتان عند سمت الشباب منذ عشرين عام- كما يقول لى الأهل والأصدقاء وكل من يعرفنى.. جاء رجل بدين من خلفى يهُمُّ بالدُّخول ، فرحَّبَتْ به ودعتهُ للداخل بعد أن رأت عليه مظاهر الثراء .. لم يلتفِتْ للمعروضات مثلنا..ودخل مباشرة بنيَّةِ الشراء كأنَّه يعرف جيداً ما يريد.. جلس فى مواجهة المكتب.. وقدَّمت له قمصاناً حريرية مطرزة ،لا مثيل لها بين معروضات الـ"فاترينة"، تتداخل فيهاألوان ورسومات شتَّى كلوحات الفنِّ السُّوريالى .. وبعد فحصٍ وتقليبٍ ،اقتنعَ الرَّجلُ بالموديلات والألوان..ودخل معها فى حوار تقدير الأسعار..اختلستُ النظر إلى وجهها المواجه لوجه الرَّجل السَّمين..وأوشَكْتُ أن أصيح قائلاً -" إنتى مين ؟!" .. لابُدَّ

أنَّنى قابلتها فى مكان ما - مقابلة طويلة أو مقابلات متعدّدة، جعلَتْ لوجهها هذه الأُلفة .وهذا الحضور ، السَّريع فى ذهنى .. كلما أوشكت ابتسامة الغمازتين السَّاحرتين - أنْ تطفو بماضيها على سطح ذاكرتى- أهمَّ بالصياح ،إلَّا أنها لا تلبث مبتعدة من جديد، لتسقط فى أعماق النِّسيان .. لابُدَّ أنها تحجَّبَتْ بعد أن عرفتها ، فأنا لم أعرف محجّبات طوال حياتى، ولم أخالطهنَّ فى الجامعة ،أو فى جميع المدارس التى عملت بها ، وأعتقد أن حاجز التعارف يعزى إليهنَّ، ولا سبب لدى فيه .. هل غيَّر الحجاب شكلها فأجهد الآن محاولات ذاكرتى .؟!!.. لاحظْتُ عينيها تشردان من الرَّجُل مراراً - وتتفحصانى بإرادة فضولية ، لا تقلُّ عن إرادة نظراتى وفضولها .. حاسبها الرَّجل وابتسمت له قبل أن يدور بجسده السَّمين خارجاً .. ثمَّ وضعت المبلغ المدفوع فى خزينة المكتب ،وعادت خارجةً إلى الباب ، و هى تُصَوِّبُ عينيها

السَّوداوين إلى وجهى - دونما أى تحفُّظ منها هذه المرَّة .. بقيت وحدى أطيل المشاهدة ،بعد انصراف المتفرِّجين من حولى .. وعندما عدتُ مختلساً إليها النظرة ، لَمَحتُ على وجهها رغبة فى الكلام معى.. وهممتُ بالانصراف قبل أن تبادرنى بالسُّؤال متعجِّبة طول وقوفى .. وقبل تحرُّكى ، فجأنى انتصارها على تردُّدها وقطعَتْ قدماها الخطوة الفاصلة بيننا ،وهى تبتسم مشيرة إلىَّ بسبابتها تقول :-

ـ الأستاذ محمود قاسم .؟!

ـ إنتى تعرفينى .؟!!

ـ أستاذى ف دمنهور الصناعية بنات ..حضرتك مش فاكرنى .؟!! الآن وبعد طول عناء ، تقودنى الذاكرة إلى اتجاه واحد فقط .. رجعت إلى أيام التدريب العملى قبل التخرُّج من الجامعة ..وبعد

لحظات تمتمَتْ شفتاى وأوشكتُ أن أقول " هبـة أو دعـاء إدريـس " فقطعت هى تمتماتى وشرود الماضى وبادرتنى قائلة :-

ـ هيام محمد إدريس (٢/٣) تفصيل وتطريز .

ـ ياااه . من بداية وقوفى وأنا بحاول أفتكرك .!!

ـ اتفضّل يا أستاذ .

دخلت جالساً على الكرسى فى مواجهة مكتبها ، بينما دخلت هـى حجرةً ملحقة بالمحلّ بعد استئذانى فـى لحظـات .. يـاااه.. فعـلاً هى ، ولكنّها كانت شـقيَّةً وصـاخبةً ومتمـردةً علـى الـزّىّ المدرسـىّ الموحَّد .. وكانت كلمة " الغمازتين " - أداة الإشارة إليها بينى وبين زملائى المتدربين مُدَرّسـى المـستقبل، وكنّـا دائمـاً نقولهـا بـدلاً مـن اسمها .. كانت فـى بـدء هراهقتهـا نموذج الأنوثـة المثـالى - وفْـق تقدير زميل دفعتى إيهاب الجمل ..جـاءتنى بكـأس ليمـون مـثلج.. وبعد لحظات صمت سألتها:-

ـ إيه إللّى جابك اسكندرية. ؟!!

ـ المحل ده كان هدية جوازى وبقى دلوقت ملكى وأنا بديره بنفسى .

تجوَّلتُ صامتاً بعينىَّ ، أضالع أركان الصَّرح التجارى الكبير متعجباً لحجم الهديَّة - هو إذنْ أحد أفرع السلسلة التجارية الشهيرة، المنتشرة فى شَتَّى مدن مصر ، والتى تخصَّصت فى ملابس المُحجَّبات، ولكن أين ملابس المحجَّبات ؟!!. ولماذا تحوَّل المحلُّ، بعد انكشاف صاحبهِ - شهريار صفحة الحوادث فى كل جرائد العام الماضى .؟!!.. زاحمتنى الأسئلة قبل أن أسألها :-

ـ لكن انتى كنتى بتلبسى ملابس عادية وبتكشفى شعرك .؟!!

ارتسمت على شفتيها ابتسامة الذّكرى ،وهى تُخرج من حقيبتها أوتوجراف باهت الغلاف ، وتفتحه على إحدى صفحاته ،بينما أترقَّبُ أنا بشغف ما تسعى إليه .. فاجأتنى الصَّفحة بثلاث نصائح

تدعوها للالتـزام- مكتوبـة بخـط يـدى ،ومذيَّلـة بتـوقيعى وتـاريخ كتابتها ..

ـ أنا اتأثرت بنصايحك واتحجَّبْت.. وعشان كده اختارنى الحاج من بين بنات الشركة .

وأعدت إليها الأوتوجراف بعد أن تشبعت عيناى بحروف كلماتى العتيقة .. ووقفت شاكراً حُسْنَ ضيافتها..ثمَّ ودَّعتُها قبل خروجى إلى الشارع ،شارداً بين انطفاء حِبر كلماتى وبريق شعارات شهريار.

أول هاتف

- أشعر بها تراقبنى منذ الصباح ، وأرىنظراتها اليوم لى مختلفة - لا هى بريئة ولا محايدة كعهدى بها ،منذ انتقالى للعمل بالمدرسة التى تجمعنا .. يحيِّرُنى - طوال اليوم - بريق عينيها الغامض الشَّفيف ،الذى يباغتنى مرة تلو الأخرى كلما التقت عينانا .

.....

- معقول لم يشعر بلهفة نظراتى ،وبانشغالى به طوال اليوم .!! .. كيف لاحظت صديقتى المقرَّبة "دعاء" التى أختصُّها بأدق أسرارى جميعها إلاَّ سرَّه هو .؟! ..كيف انتبهت لاختلاسى النظرات إليه وكيف لم ينتبه أو يستفسر هو .؟!!

.....

- ألمْ تؤكد صدق شعورى حمرة الخجل الأنثوى، التى لوَّنت وجهها صافع الخدين ، عندما نكَّسَتْ رأسَها و هى تهُمُّ

بـالكلام ،قبـل أن تتراجـع بـسرعة عنـد بـاب (٣/٢) منتظـرة خروجى، لتدخل حصَّتها التالية لحصَّتى فى نفس الفصل .؟!

.....

- أبداً لم تقتنع دعاء بتبرير عفوية نظراتـى وبراءتهـا ، بعـد أن ارتَبَكْتُ وتلعـثم لـسانى بحـروف الـرَّدِّ عليهـا ، ويبـدو أنَّنـى أتناسى ذلك اليوم،الذى أخبرتها فيه بأحلامى المتكـررة، التـى يطاردنى فيها دائماً، وأنا أجرى فرحة بالمطاردة، حتَّـى يلحـق بـى، ويعـانقنى بـدفءٍ يطفئ وحـشة الفـراغ الممتـد أمامنـا،ثم يحملنى على بساط ذراعيه، ويضعنى برفق على سرير من ضـوءٍ مبتهج ،ويغلق بكلماته الساحرة أبواب الكون علينـا .. كـان ردُّ دعاء عندئذٍ - " هى رغبة منك فيـه ولأنهـا مكبوتـة تظهـر فـى اللاوعـى وأنـت نائمـة " .. ونفيـت يومهـا أيَّـة رغبـة فيـه.. وصَـدَّقتنى دعـاء بعـدما رحـت أصـبُّ اللَّعنـات والتأفُّفـات علـى

شخصه المغرور، متوحدة - بذلك - مع آراء كل الزُّملاء فيه .. وتحفَظْتُ طوال عامين، فلم تَشُكْ صديقتى فى صِدقى، ولم يبدُ أىُّ شىءٍ علىَّ حتى كشفتْ نظرات اليوم عن مشاعرى .

.....

- هل أتوهَّم رغبتها فى الحديث معى .. وإن كنت واهماً حقاً - فلماذا تسلَّلَتْ من بين زميلاتها المدرسات الجالسات فى حديقة المدرسة ،وصعدت ورائى لحجرة المدرسين، يعاودها ارتباكها الخجول لحظة دخولها وإلقاء السَّلام .؟! .. ألمْ تصطنع تصحيح كراسات أعلم تماماً أنَّها قد صححتها بالأمس،وكان يجب إعادتها للتلميذات اليوم .؟! .. تيقَّنتُ من صدق شعورى برغبتها فى الحديث . عندما مهدتْ لما تقصد بسؤالها لى عن

موضوع الكتاب الذى فى يدى وأقرأه الآن .. ولولا دخول زميلى أحمد لاستمرَّتْ فى الكلام حتَّى يُتاح لها ما تريد .

.....

- هكذا دائماً تقف كلُّ الظروف ضدَّ خروج الكلمات من صدرى .. وعلى مدى السنوات الأربع - وأنا أحاول نسيانه وأفشل .. وبعد طول يأس من بدء علاقتنا، وافقتْ على خطبتى لغيره .. ولكنَّى لم أنسجم يوماً مع خطيبى ،ووجدتنى بذلك أنشد المستحيل .. ولم تنقطع الأحلام وفرحتى بمطارداته لى .. وطال سجن الكلمات داخلى ، وكنت قد تهيَّأت للبوح له بها ، وهيَّأت جرأتى التى طالما خذلتنى أمامه مرَّات تلو الأخرى .. ولولا دخول زميلنا أحمد، لكنت قد حرَّرت الكلمات من سجنها، ولأخبرته مهما كان رد الفعل وهول المفاجأة عليه .

.....

- ليس بيننا ما يدعوها للتراجع أو الخجل ..ألمْ تحدِّثنى من قبل، وتدخل معى فى مواضيع كثيرة على انفراد أو بين الزملاء.؟! .. ينتابنى الآن هاجس قديم كان قد تبادر إلى نفسى، عندما تحدَّثتُ معها للمرَّة الأولى فى المكتبة .. ولولا علمى بأنها مخطوبة لغيرى- لتأكَّدتُ من مغزى رغبتها الدائمة فى الحديث معى، ولتأكَّدتُ أيضاً من ميلها نحوى، بعد أن حذفَتْ كلمة " أستاذ " قبل نطقها لاسمى ، رغم أنَّها لم تزل تنادى بها الجميع إلى الآن ..نعم لقد حذفَتْ مسافة الزمالة بيننا مؤخَّراً .. وبدأت تسألنى عن شئونى الشخصية والحب ومواصفات شريكة الحياة .. هل كانت تميل بوجدانها نحوى حقاً .. هل استمرت فى ميلها سراً رغم خطبتها وزواجها، الذى - وفق علمى - سيكون بعد شهور معدودة .؟! .

.....

- آه لو يشعر هذا الجلمود الأصم بما يمور داخلى من لهفات مجنونة به ، ولو أستطيع اقتناصه من طابور الفسحة قبل آخر حصَّتين بقيتا من اليوم الدراسى، ويكون بعدهما فراق أسبوعين لن أراه فيهما - طوال أجازة نصف العام .. أتمنى الآن لو أطير به إلى مكان بعيد ، مكان يحرِّض قلبى على كسر حاجز الخوف من مصارحته بحُبِّى ، ومصارحته باغتيالى المتجدِّد فى كل زيارة أرى فيها خطيبى .. حقاً كم أمقت الإجازات التى تحرمنى رؤيته .

.....

- بحسِّهن الماكر لاحظت تلميذاتى المراهقات نوبات شرودى، وارتباكى معهنَّ فى موضوع درس الحصَّة الرَّابعة .. وفعلاً لم أكن بكامل حضورى معهُنَّ .. وسطَتْ على ذهنى محاولاتها الدَّؤوبة للانفراد بى ، و انشغلتُ بالتفاتاتها الجائعة فى

الحوش، وعند باب (٣/٢)، وفى حجرة المدرسين والمكتبة والطرقات .. لقد نأت بى عن التلميذات نداءات الهاجس القديم.. وتنامى دا خلى فضول لحوح للوصول إلى مغزى حالتها، التى حاصرتنى طوال اليوم .. غبت مراراً مع بريق نظرات عينيها السوداوين ومع حمرة خجل الخدين - تلك الجديدة تماماً علىَّ .. ولذا قرَّرت البقاء بالمدرسة لبعض من وقت الحصَّة الخامسة الفارغة فى جدولى وجدولها - ربما أُتِيح لها ولفضولى اللَّلحوح فرصة أخرى

.....

- لو لم أكن قد لحقت به قبل خطوات من خروجه عند بوابة المدرسة ، ولولا إحساسه هذه المرة بمتابعتى له ومراقبتى لخطواته - لما توقَّفَ قبل أن أناديه وألحق به، ولما استطعت سماع صوته الحبيب على سماعة الهاتف ،الذى كتبت رقمه

بأنفاسى المتلاحقة على هامش جريدته ،بعد جرأة أخيرة لم تخذلنى .. أخيراً باح لى بهاجسه القديم ،وتعجَّب من طول صمتى ومن سجن الكلمات الطويل داخلى .. أخيراً فجَّر ثورة مشاعرى الكامنة بقوله لى " أبداً أبداً لن يكون آخر هاتف" ..

نعم ولولا هاتفه الأول ، لما سمحت الأقدار لنا بدخول فردوس عناقنا الأبدى.!!

مسافة ثابتة

وصل فى أوّل ترام صباحى إلى ميدان محطّةِ الرّمل ، قادماً كعادتهِ من مقر عملهِ ، ونزل يفركُ عينيهِ متثائباً بعناء وردية اللّيل التى فرغ للتّوِ منها .. اشترى الجريدة،وعبَرَ شارع سعد زغلول، قاصداً مقهى "بوفيهْ مصر" المقابل لساحة الميدان .. ألقى بجسدهِ المجهد على أقرب كرسى قابلَهُ ، وكالعادة جاءه النادل ،بالشّاى و "الشّيشة" قبل أن يطلبهما مِنْهُ ..راح يتابع عناوين الجريدة ، نافثاً خيوط دخانِه فى هواء الصّباح الطّازج.. بدأ الشارع يستقبل وقْعَ أقدام الموظّفين وتلاميذ المدارس ،بعد مُضِى اللّيل بخواءِ السّكونِ .. رفع عينيهِ- كعادته- عن الجريدة وطواها ، مع مرور السّرب الأوّل من بنات "الأسكندرية الثانوية" المجاورة لمسرح "بارك" عند تقاطع شارعى سعد وصفية زغلول عن يساره .. رآهُنَّ يخطُرْنَ أمامه ،وهنَّ يتهادين كالغزالات،مختالات بأنوثة المراهقة الدافقة والهزار المتلاحق

طوال الطريق .. تخاطفت عينيه قمصانهن البيضاء الرقيقة، التى تُلاَمس صدوراً متباينة التشكيل - بعضها يبرز نهدين عصفورين وديعين،وأخرى تُعْلِنُ عن أرنبين برّيين على وشك القفز فى وجه مَنْ يقابلها .. تفحَّصَ الأسراب مترقّباً حضور سِرْبِهِ الثلاثىَّ المفضَّل .. رأى على البعد مليكته تتوسط وصيفتيها ،فاختلج قلبه وتلهَّفَتْ عيناهُ للاقتراب .. استأثر وجهُهَا الطفوليُّ البريءُ بنظراته اللاَّهثةِ بين دفقات الأسراب، ولم يعدْ يشعر بسواها - كأنَّ قدَّها الفارع المشوق عمود ضوءٍ فى فضاء رحيب مظلم .. مع اقتراب سِربها تتأجَّجت اختلاجات قلبهِ ، وتأهَّبت عيناه للذّة الالتقاء بعينيها .. لم تزل عيناه إلى الآن مسكونتان بلذّة نظرة الأمس ،التى أكْدَتْ له إحساسها بهِ وانتباهها لكلِّ نظراته الماضية .. مالت مبتسمةً توشوش وصيفتها اليمنى قبل خطوات من موضع كرسيِّه،

وألقت وصيفتها نظرة خاطفة باتجاه الجالسين معه على رصيف المقهى .. تأكَّد أنَّها همست لوصيفتها به ،وأنَّ وصيفتها كانت تقصدُه بالنظرة الخاطفا . عبر السِّربُ نقطة الالتقاء بموضعه على الرَّصيف .. صدمَهُ تجاهلها له وثبات عينيها بامتداد الشارع .. رأى فى تجاهلها دلال الأنثى مع راغبها .. واستدار برأسه ونظراته المتلَّهفة فور عبورها .. غرق فى شلال شعرها المعقود خلف الرأس على هيئة ذيل الفرس والمنسدل إلى بداية ردفيها .. حاول إشباع ،عينيهِ متجوِّلاً بهما على سِمَّانتَىْ ساقيها المضيئتين قبل بلوغها التقاطع المؤدى لمدرستها .. دخلت وصيفتاها التقاطع بينما ظلَّت هى تواصل تهاديها الفتَّان على الرَّصيف الممتد أمامها .. أدرك على الفور أنَّها شردَتْ عن المدرسة لِتُهَيىء له فرصة الاختلاء بها .. قام مسرعاً يحاسب النادل ثمَّ تبعها فى الشارع الذى خلا مع دقَّات السَّاعة الثامنة.

موعد الموظفين الرَّسْميِّ ،وموعد بداية الحصَّةِ الأولى .. ومع انتهاء رنات ساعته ، تدفَّقَ فى أذنيه إيقاع كعب حذائها على الرَّصيف .. لاحظ مسافةً ثابتةً بينه وبينها ، وأسرع لتضييقها فأسرعت ..وظلَّتْ المسافة ثابتة .. تمنَّى لو تلتَفِتُ وراءها لِتعرف أنَّهُ قام وغادر المقهى وتبعها .. رأى-على الرَّصيف المقابل - شاباً بديناً مع فتاة مُحجَّبة ، خطفا عينيه لبرهةٍ، فاطمأنَّ لانسجامهما معاً ،وانشغالهما عنه وهو يلاحق غزاله الشَّريد .. حاول تضييق المسافة عازماً على بدء الكلام معها.. توقَّفَتْ فجأة لتدخل مكتبة مدرسيَّة عن يسارها ، أدرك أنَّها لم تكن شاردة من أجلهِ ، و أنَّهاحَتْماً ستعود إلى المدرسة بسرعة بعد الشراء.. دخل ليشترى أى شيءٍ آملاً فى قراءة وجهها .. عندما التَفَتَتْ لم ير على وجهها أى إحساس بوجوده ، فازداد يقيناً بدلال تجاهلها .. طلب من البائع قلماً

وسمعها تطلبُ - على عجل - تصوير ورقتين فى يدها، لتلحق بالحصّة الأولى .. استدار البائع إلى الرَّفّ لِيُحضر القلم ،فصار ظهره إليهما .. عندئذٍ رمقته بنظرة غامضة تحيَّر فى تفسيرها.. تناول القلم من البائع وحاسبه وتلقَّى منها غموض نظرة أخرى لحظة خروجه .. أبطأ السير باتجاه تقاطع المدرسة حتى تُصَوِّر الورقتين وتلحق بهِ .. بدا مقلداً لتمرين السَّير فى المحل، متلهفاً لخروجها من المكتبة .. ابتعد للأمام أكثر مما يريد فكاد أن يتوقف قبل أن يستمع إلى إيقاع دقَّات كعب حذائها السَّريع المتواتر على الرصيف .. أبطأ لِتصل إلى محاذاته فأبطأ الإيقاع وبقيت المسافة ثابتة .. لعن فى سرِّه المسافات ضجراً بطغيان دلال الأنثى .. مَرَّ على التقاطع المؤدّى للمدرسة.. وانتظر غياب الإيقاع بدخولها ،ولكنَّ الإيقاع لم ينقطع.. تجاوز التقاطع بمسافة طويلة دون أن يفارق الإيقاع أذنيه، فاطمأنَّ

لإحساسها به ،وارْتَاح فى تفسير جديدٍ لنظراتها الغامضة .. وتأكَّد أنَّ شرودها عن المدرسة الآن من أجله.. مَرَّ على المقهى ولم يزل الإيقاع يهدُرُ فى أذنيه، ولم تزل المسافة بينهما ثابتة.. فكّرَ فى الاستمرار بامتداد الشارع حتى يتخيَّر مكاناً مناسباً- يتوقَّفُ عنده ويكلّمها .. خطرَتْ فى باله حديقة الشلاَّلات القريبة والمفتوحة بلا أسوار، والتى حتماً ستكون خالية فى مثل هذا الوقت .. شرَدَ فى استدارة وجهها المضىء بياضاً، وتخيَّلَها إلى جواره فى الحديقة ، يبوح لها ويبوح ويسألها عن بداية إحساسها بنظرات المقهى .. قرَّر أنْ يحافظ على المسافة ،حتى يعفيها من حرج التوقُّفِ مع شاب فى الشَّارع،ومن هواجس الخوف والمراقبة .. وأمام سينما "أوديون" قبل الانحدار المؤدَّى لِحديقة الشلاَّلات- داهمَ أُذنيه تسارع الإيقاع ،فشعر أنَّها على وشك اللَّحاق بهِ .. والْتَفَتَ للوراءِ

لِيُطَالع نيَّتَها فصدمته المفاجأة بفتاة أخرى غير غزالـهِ المدرسى الشَّريد.. رأى جارة صديقه عصام التى يعرفها جيداً ، وتعرفه هى أيضاً وتراه مراراً منَ شرفةِ بيتها بالمنشية، كلما ذهب إلى هناك بصحبة صديقه..أسرع أمامها مذهولاً بالصَّدمةِ، وهو يهمسُ لنفسه متسائلاً - "هل تراقبنى هى الأخرى وتعرف موعد عودتى من الوَرْديَّة وجلوسى بالمقهى ؟!. ولماذا تسير ورائى فى هذا الوقت المبكِّر من الصباح بنفس بالمسافة الثابتة التى أُلاحق بها غزالى المدرسىِّ العنيد ؟!. أكيد هى معجبة بى، وتحاول لَفْتَ انتباهى إليها- كما أفعل أنا مع غيرها .. أكيد وجودها الدائم بالشرفة ليس مصادفةً - ولكن لكى ترانى .. وبالتأكيد هى أيضاً تعرف موعد زياراتى المنتظمة لعصام - مساء كلِّ جمعة .. هى جميلة وجامعية ناضجة ومن أسرة ملتزمة ومحافظة ،تناسب مهندس يعمل فى شركة

بـترول مثِلـى .. لمـاذا لا أفكّـرُ فيهـا .. ألمْ يقُـلْ لى عـصام إنَّ ابتـسامات ونظـرات غـزالى المدرسىَّ مجـرد نـزوة مراهقـة" .. داهَمَةُ الإيقاعُ الذى تسارع خلفهُ من جديـد فأيقظـه مـن شـرود تساؤلاته الحائرة .. قصدَ موقف السيارات الذاهبـة إلى المنتـزهِ حيـث يقـيم.. وأسـرع محافظـاً علـى المسافة بينهمـا .. تواصـل الإيقاع فى أذنيه متـواتراً .. سـأل السائقين عـن السيارة التـى عليها الدَّور .. دخل إلى كرسىِّ السَّيارة الأخـير، لِيُتـيح لِرأسـه المُجْهد فرصة الاستناد إلى الخلف ،والنوم كعادته كل يوم طوال الطريق إلى بيتهِ .. لاحظ ارتباك وجهها وزيغ نظراتها الغامضة إليه ،وهـى تـصعد نفس السَّيارة .. جلسَتْ أمامـه بكرسـيَّيْن مجاورة للنافذة مباشـرة لِتكـون بمحاذاتـه .. انـدهش للطريقـة التى تعبِّرُ له بها عن إعجابها .. همس لنفسه- " كانـت تكفـى الإشارة أو النظرات مـن شـرفتها بـدلاً مـن ملاحقتـى والرُكـوب

معى إلى حيث أقيم ".. توالَتْ نظراتها إليه ،وهى تصطنع النظر عبر زجاج السيارة بالتفاتة غير كاملة للوراء .. ظلَّ طوال الطريق شارداً فيما جرى له اليوم .ولم ينَمْ للمرَّة الأولى في رحلة عودته .. نزل عندما توقَّفت السَّيارة أمام شارعه بحيٍّ المنتزه .. أدهشه نزولها معه وسيرها وراءه محافظة على مسافة أخرى .. قابل بعض جيرانه وألقى وتلقى تحيَّة الصَّباح .. وعندما وجدت الشَّارع أمامهما خالياً تماماً من المارة ، أسرعت الخطى حتَّى صارت أمامهُ بخطوتين ..وألقت إليه بورقة مطويَّة، سقطَتْ عند قدميهِ ..وأسرعت داخلة فى أوَّل شارع متفرِّع قابلها .. تلصَّصَ على الشَّارع والشرفات قبل أن ينحنى ملتقطاً الورقة .. وعندما اعتدل دسَّها فى جيبه ، مسرعاً إلى بيته يتلهَّفُ لكلماتها .. دخل حجرته ..وأغلق الباب مستنداً

إليهِ بظهره ..وفكَّ طيَّات الورقة محدقاً فيها .. وابتسم وهو يقرأ ويسمع صوت توسُّلاتها له : -

ـ أستحلفك بالله يا باشمهندس لا تقل لعصام جارنا ولا لأىّ أحد أنَّك رأيتنى مع زميلى فى شارع سعد زغلول هذا الصَّباح .

گوندیشن

ـ دَايْ ..

أَذْهَلَـهُ صـياحها المفـاجِئُ، وبـدَّد سـكونَ وِحْدَتـهِ حـضورُها الصَّاعِقُ، فانتفض واقفاً أمامهـا ،يمـسك بمِبْـسَم "الشِّيـشَة"، مصطدماً بقدمـهِ اليمنـى فـى مجمـرةُ الفحـم المتَّقِد، فتنـاثرتْ الشظاياالحمراء فوق أرضيَّة المحِلِّ مُحْدِثةً " طـشْيْش" الالتقـاء ببَلَلِ البلاط، الذى فرغ من غَسْلِهِ قبل لحظاتْ .

ـ معقول .؟!! .. مدام منى ..!!.. أهلاً يا فندمْ .

لم يكن يتوقَّع أبداً مجىء أىِّ شخص فى هذا الوقت المتأخِّر من ليلهِ الشتوى المطر .. فهو يعرف جيِّداً أنَّ سـكانَ " مارينـا " يهجرونهـا تمامـاً طـوال الـشتاء .. فـدائماً مـا تُغْلِـق جميـعُ المحلاَّتِ هنا أبوابهـا فـور نهايـة الـصَّيفِ وبـدء الدراسـة .. ويبقى هـو فقط فاتحـاً محِـلَّ الأدوات المنزليـة والكهربائيـة، الذى يُدِيرَهُ بتكليفٍ من الحاج "عيد فرحات".. يقـصده عُمَّـال

الصِّيانةِ وأشغال التجديدات .. ولا يرافقهُ سوى رجال الأمن والخدم ، بعد ذهاب الصَّيف بسكان "الشاليهات" ونسائها الأثرياء الصَّاخبات ، ولذا أذهلَهُ الآن مجيء زوجة "كامِلْ بيهْ"- صاحب محِلاَّت الصَّاغةِ الشهيرة المنتشرة بأفرعها فى القاهرة والأسكندرية ، والتى يطالِعُ إعلاناتها كلما تصفح الجرائد .. هو يعرف رقم " الشاليهْ " الخاص بها وبزوجها فى المنطقة التاسعة، ويتمنَّى أنْ يدخلَهُ مثل صديقه إبراهيم، الذى دخلَهُ لِتركيب ستائر الشرفات الأوتوماتيكية، وتقاضى مبلغاً كبيراً يفوق راتبه طوال العام .. " هل جائتنى نفس الفرصة ؟! "- هكذا تهامس لنفسهِ ، وهى تتقدَّمُ إليهِ بقوامها الممشوق، الذى تتوارى تضاريسه الفاتنةُ تحت معطفٍ جلدى طويلٍ .تُظْهِرُ فتحتهُ الأمامية " البَادِىْ "

و" الإسْتِرتشْ" الملتصقين بالجسد ،والمتَّحدِين بلونهما مع لـون بشرتهِ ..

ـ إبراهيمْ هِنَا .؟

ـ لا يا فندِمْ إبراهيم راح الجيش .. وأنا فى خِدْمِتكمْ مكانُهْ .

ـ الكونديشن عطلان والجو برد جداً .. تعرف تِصَلَّحُهْ .؟

ـ طبعاً يا فندم أعرف .. تحتْ أمرِكْ .

بسرعة ركب معها سيارتها المرسيدس الفارهة المكيَّفة، فشعر على الفور بفارق الدِّفء ونعومة المقعد الوثير ، ولم يشعُرْ ببداية الحركة إلاَّ من خلال حركة الشاليهات والحدائق والمحلاَّت ،التى يطالعها عبر أنهار رفيعة وشفيفة، يُحدِثها تكاثفُ قطرات المطر الغزير على زجاج السَّيارة .. أخرَجَتْ شريط كاسيت من " التابلوه " وأدخلته فى بيت المُسجِّل .. على الفور صخَبَتْ بأذنيهِ

موسيقى مجنونة هادرة كعواصف الرِّياح المواتية من اتجاه البحر إليهما .. وبعد مقدِّمة الموسيقى داهَمَتْ أذنيهِ صرخاتُ المطربة بكلمات عربية ركيكة ،تختلطُ بأخرى إنجليزية متداولة ،يعقبها تأوُّهَات جنسية حادَّة .. سمعها مرَّاتٍ من قبل بعد انتشار الشريط بين الفتيان والفتيات من رُوَّاد القرية فى الصيف الماضى .. تناولَتْ علبة السجائر المستوردة من فوق "التابلوه" ، وأخرجت سيجارتين.. ودون أن تدير وجهها إليه، قدَّمَتْ لهُ إحداها قائلةً :-

ـ سيجارة .. إيهْ رأيك فى أغنيةْ " سعيدة سُلْطَانة" .؟

تناول السيجارة .وأسرع يشعل وَلاَّعتَهُ منحنياً بجسدهِ لِيُشْعل لها ،وعاد معتدلاً لِيُشعل لِنَفْسهِ .فامتزجت رائحة الدُّخان برائحة " البارفاه " المشعَّ من ملابسها،إلى فراغ السيارة محكمة الإغلاق وقال ..بعد أول نفس :-

ـ دِيْت حكايتها فى روزاليوسِفْ .. دِىْ كانتْ ولدْ إسرائيلى واتْحَوَّلْ لِبنتْ بعمليَّةْ جراحيَّةْ .

ـ ولدْ .؟!!

ـ تصوَّرى يا فندِمْ .. دَخَلْ مصر مليون نُسْخَة مُهَرَّبة من الشريط دَهْ .

ـ مهرَّبة لِيهْ م احنا أصحاب إسرائيل خالص دِى لوقتْ .؟!! توقَّفَتْ السَّيارة ،فتوقَّفَت معها تأوُّهَات المطربة المهرَّبة، إثرَ سماعهُ لعدَّةِ رنَّاتٍ متوالية لهاتفها المحمول القابع فوق "التابلوه" .. رفعت السَّماعة ،بينما ظلَّ هو مصغياً لحوارها وعيناهُ شاخصتان فى مساحات اللَّيْل الشاسعة أمامَهُ ..

ـ ألُوهْ .. .. أهلاً حبيبى .. ... أنا هِنَا عند ماما فى اسكندرية ... ... كل حاجة هِنَا تمامْ ... ... جايْ بعد أسبوعين ... ...

إنت عامل إيهْ فى لندن .. .. حاضِر ... ... خلِّى بالك إنت من نفسك وابقى اتِّصِل ... ... سلامْ .

وراح يتساءل فى سرِّه- لماذا تكذب على زوجها ولم تقُلْ فى "مارينا " .. وتذكَّر آخر مرَّة رآها مع زوجها- "كامِل بيهْ" على الشاطىء، عندما كانت مسترخية بالمايوه البكينى فوق كرسيها تحت المظلة ،وهى تطرق ضجرة بكأس فارغ على الطاولة بينما يتَّمدد – على الرَّمل بجوارها – جسدُ زوجها البدين المقارب لعمر أبيها، تُغَطِّى وجهَهُ "بورنيطته" الشهيرة ،بعد غياب وعْيَهِ فى غفوة قيلولةِ الظهيرة .. وقتها صاح قائلاً لصديقه إبراهيم الذى رافقه المرور بجوارهما .. (مينْ يجيْلوهْ نوم يا إبراهيم يا أخويا مع وِزَّةْ حلوة زَىْ دِىْ.؟!!) .. وعندما استنْكَر إبراهيم عُلوَّ الصوتِ خائفاً أنْ تسمع – وكزَهُ بالكوع فى جَنْبِهِ محذِّراً،

ورفع إبراهيم يدَهُ إليها بالتحيةِ، وأشارَتْ إليه بيدها مبتسمة، فاطمأنَّ من مخاوفه واطمأن هو أيضاً .. وبعد خطوات أخبَرهُ إبراهيم بالمبلغ الكبير الذى كافأته به نظير تركيب السَّتائر .. أيقظتهُ الأوزَّة الحلوة من شرود التذكُّر بنظرة جائعة وابتسامة ماكرة هامسة لهُ :-

ـ ويا تَرَى تِعْرَفْ فى الكهربا زَىْ إبراهيمْ .؟

ـ طبعاً يا فَنْدِمْ .. شُغْل وخبرَةْ ودراسَة كمانْ .

ـ شهادتك إيهْ .؟

ـ مهندس كهربا .

ـ تعرف إنْ أنا بحِبِّ الكهربا .. لكِنْ بخَافْ مِنْهَا .؟!!

توقَّفَتْ السيارة فى حديقة "الشاليه" ،فنزل وراءها نشيطاً ومتحمِّساً لمواجهة عُطْل الكونديشن .. وتبعها داخلاً ،فبهرته فخامة الأساس والديكورات، وتاهت عيناهُ عجباً فيما يرى ..

وأيقن الآن أنَّ صديقه إبراهيم لم يكن مبالغاً فى وصف عالم "الشاليهات" من الداخل - بل كان عاجزاً عن الوصف .. ورغم كونه مهندساً - أذهلَهُ أنَّ كلَّ شيءٍ يُفتح ويُغْلق بالـ"رِّيموت"، الذى يراه - للمرَّة الأولى - محركاً للأبواب والسَّتائر ودرجات السلم ولَمْبَات الإضاءة ،وحتى مع منضدة الطعام والمشروبات .. لم يكن يتصوَّر كلَّ هذا السحر للـ "رِّيموت" الصغير المُعلَّقَ فى سلسلة مفاتيحها..سبقَتْهُ إلى حجرة النَّوم هامسةً فى خيلاء: -

ـ تعالى .. الكونديشن هِنَا .

دخل مرتاباً، وراح يتفحَّصُ الجهاز المُعَلَّق عند نافذة الحجرة.. وكتَمَ فى نفسه ضحكةً ساخرةً ،بعدما رأى سِلْكَ التوصيل مقطوعاً بالعمد ، ربما بواسطة مقصٍّ أو سكِّين،يتكوَّر فى عدَّة لفَّات حول مسمارٍ خلف جسد الجهاز،بينما يتدلَّى

طرفـهُ الآخـر ، معلنـاً لـن يـراه عـن مغـزى الحيلـة، التـى اصطنعتها "مدام الشاليه" .. راح يربطُ السلك جيداً ثـمَّ دعاهـا للتـشغيل، فوجَّهَـتْ الـ "ريمـوت" ضـاغطةً، فأضـأت لمبـة الاختبار الصغيرة الحمراء .. وبعـد لحظـات تبـدَّلت الرُّطوبـة القارسة فى أركان الحجرة - إلى دفء لذيـذ، يـدعوهُ للبقـاء.. ولكنَّ المبلغ المتوقَّع بدا أكثر دفئاً لخـاطره الخجـول .. خلعَـتْ معطفها وقذفَتْ به ،مستلقية بجسدها الملتصق بالـ "بـادى"و الـ "إسـترتس" فـوق الـسَّرير الـوثير، واضـعةً سـاقاً علـى الأخرى..تُحرِّك ذراعيها لأعلى بإشارة إلى الدفءِ المتسرِّبِ فى هواء الحجرة صائحةً :-

ـ إيوهْ كدَهْ .. أنا مش عارْفَهْ أشكرك إزَّايْ .؟!!

ـ العفو يا فندم .. أنا دايماً تحت أمرِكْ .

نهضت بخيلاء ،وهى توجهُ الـ"ريموت" إلى التليفزيون المختفى بجسده فى باطن الجدار المواجه للسرير .. واستدَعَتْ منضدةً تحملوها زجاجة خمر كبيرة-لا يعرف نوع خمرها.. وعندما جاءتها الزجاجة أفرغت كأسين، و قدَّمَتْ له ،وهى تقوده من يدهِ ،ليجلس على طرف السَّرير، فبدا مستسلماً تماماً لها .. رأى على الشاشة عرض أزياء غريبة وشاذَّة بالقناة الإيطالية، التى شاهدها من قبل على الـ "دِّش" فى مقهى المنطقة الأولى .. وعندما ارتَشَفتْ كأسها كاملاً ،لاحظَتْ عزوفه عن الشَّرابِ ،فأشارتْ إلى كأسه مبتسمة :-

ـ إيهْ .. إنتَ مُشْ بتشرَبْ ولاّ إيهْ .؟

ـ لا .. لا يا فندِمْ .. بَعدْ مرَّةْ كدَهْ .

تناول الكأس دفقةً واحدة ،مندهشاً بمتابعتها لطريقتهِ، فتوجَّه بعينيهِ للشَّاشةِ متجاهلاً نظراتها .. رأى بالحروف

الإنجليزية على الشاشة كلمتى "بلاى بوى" .. وعندما غابت الكلمتان والحروف المضيئة تبعتها أجسادٌ عاريةٌ تماماً، ، وأفخاذٌ تداخل أفخاذاً ،ونهودٌ جائعةٌ تداعب نهوداً مستكينةً،وشِفَاهٌ مسعورةٌ تَلْمَق حَلَماتٍ منتصبة وأوضاعٌ معقَّدة، تضيع فيها الأعضاءُ مِنْ أصحابها، وتأوُّهَات دافئة أحياناً ،وحارَّة وملتهبة أحياناً أخرى .. راح يبتلع ريقهُ مرَّات ومرَّات مع اشتعال جسده بنوبات الرَّغبة .. وأحسَّ بيدها على كتفهِ الأيسر ،وبخدها على كتفه الأيمن، فانتابته دفقات هجير مستعرة بجوعٍ ضارٍ إلى شيءٍ يتمنَّاهُ، ولكنَّهُ يخشى عواقبه .. ملَّسَتْ على رأسهِ بحنوٍ لم يعهدْهُ من قبل .. لامَسَ خدُّها خدَّه فأحسَّ بسعير الاقتراب اللذيذ .. وأمسكَتْ بيديهِ هامسةً باستكانةٍ غنج متهدِّج تقول : -

ـ تعالى بقى نِعْمِلْ "بلاى بوى" .

تخشَّبَ جسدُهُ ،وشرَدَ يهمسُ لنفسه سراً .."لو اعترضتُ وكتمْتُ رغبتها لضاع- بالتأكيد-المبلغ المُرْتَجى ، أو ربَّما يمتدُّ كيدها للحاج عيد صاحب المحِلّ ، فيطردنى بكلّ سهولة وأفقد عملى، الذى تولَّيتُه بعد تجنيد إبراهيم ، أو ربَّما تتَّهمنِى بالسرَّقة أو المعاكسة وتُبْلغ رجال الأمن كما فعلت قبلها الكثيرات من نساءُ القرية ، صاحبات الحكايا التى تردَّدَتْ على الأسماع وأعرفها"..

ـ تعالى .

راح يتابعها لاعقاً ريقَهُ بالصمت، وهى تتجرَّد وتجرِّدُهُ من ثِقل ملابسه الشتويَّة ،التى لا تناسب حرارة جسدَهُ الآن .. أحسَّ بسخونة كل شيءٍ من حولهِ .. ولأوَّل مرَّة يغوص جسدُه فى جسدٍ طرى بضٍ يُدَاعبه .. شعَرَ ببداية ثِقل رأسه، وبطرقاتٍ قويَّةٍ تكاد تذهب بهِ .. غامَتْ الأشياء كلَّها فى

عينيهِ – كأنَّه يتأمَّلُ وجهها عبر ضبابٍ كثيف .. ولم يشعر بحركة ساقيهِ وقبضَ كفيِّه على كتفين ناعمين أطرى من الحرير .. نسيَ كلَّ شيءٍ حتَّى تفاصيل مشهد الـ "بلاى بوى"، الذى يقلِّدُه الآن معها .. غاب وغاب وغاب.. وأحس بطلوع الصباح الشتوى دافئاً بأصداءِ نشوَتهِ .. تأكَّد من جلوسه إلى جوارها فى سيارتها "الزلكة" الحمراء، التى تعبرُ بهما طرقاتٍ غريبة ومُوْحشة .. أحسَّ بمروق السيارة بسرعة الصاروخ عندما بدأ جسده يغوص من جديد فى جسدها الطرى البضَّ الجالس إلى جواره .. صعقَهُ اصطدام السَّيارة بهما فى باب المحِلِّ من الداخل .. وأيقظهُ صوت التصادم الرَّعيد، فانْتبَهَ إلى جسدِهِ المُلْقَى على كرسيِّهِ خلف مكتب المَحِلِّ ، فيما تنقبض يمناهُ على مِبْسَم "الشِّيشَة" ، وهو يتأمَّل مجمرة الفحم المنطفئ على الأرض . وبعد لحظات صامتة بالدهشة، قام

متكاسلاً ، يفتح بابَ المحلِّ على صباح "مارينا" الشتوى ،آملاً في مجيء صيفٍ سريع.

خارج اللعبة

بينهم أنت الآن .. نعم - ولكن بجسدك المنهك فقط ... - " ياااا ه.. أنا ..معقول أكون هكذا معهم" ... وأين . ؟!! - على رصيف " دكان حمدى " حيث بيتك الحقيقى ، ودفء أخوة الروح فى منتداك اليومى ، الذى تشاطر أصدقاءك فيه أعمار الفراغ ،التى لا تعلمون مداها ... - " ولكنِّى أعلم اليوم .. وبعد دقائق سوف يتبدَّد فراغى الذى طال " ...-- نعم هكذا تظن ، ولكن لماذا إذن لم تخبرهم بأنَّك ذاهب للصيد فى البحيرة ، باحثاً عن خلاصك الفردى .؟!.. هل تخشى اعتراضهم أم تنتظر حتى نجاح التجربة .؟!! وهل نسيت ما جرى لك - بالأمس -فى جمعية الصيادين .؟!! ... - " نسيتُ .. لا .. لم أنس الدهشة التى طغت على وجه سكرتير الجمعية ، وهو يتأمَّلُ هيئتى واجماً ، ويجلدنى بنظراته الصامتة "... - نعم أحرجك طويلاً بالنظرات ، ثم عاد يطالع بطاقتك الشخصية ،

متأكداً من حروف الميم والهاء والنون والدال والسين فى خانة المهنة ..

– معقول .. عاوز تشتغل صياد .؟!!

– أهو أحسن من القاعدة .!!

– لكن شغل البحر صعب عليك .!!

– خلاص ح أسرح ف البحيرة .

– بحيرة إيه يا فندى .. ما فلّست خلاص .!!

– ليه .؟!!

– أصحاب المزارع الخاصة سرقوا منها زرّيعة السمك .

– خلاص ح أسرح ف الصحرا .!!

وهكذا ... - " أضحكته سخريتى حتى انتشى مقهقهاً " ... - نعم وراح يترنح بجسده السمين . وهو يصدر لك التصريح ، دون أن يكفّ عن قهقهاته الصادحة .. ثمّ أعطاك إياه بدعوات

التوفيق مبتسماً ، فخرجت ... " أتأمل ابتسامة صورتى الملتصقة بأعلاه ، وأنا أتدبَّرُ أمر بوحى للأصدقاء أو الصَّمت وإخفاء ما انتويت فعلهُ "...- نعم ولكنَّهم الآن ازدادوا انشغالاً بحالتك الغريبة ، التى رأوك عليها طوال اليوم .. ولم يصدقوا حكاية الصداع والنوم وحاجتك الماسَّة إليه ، وها أنت تقف منسحباً من دفئهم بحجج واهية – للمرة الأولى ...- " يا اااه.. نعم هى المرة الأولى فعلاً - منذ بداية وعيى بهم وبجيرتنا الطيِّبة .!! ..لا أدرى كيف فعلتها كاذباً عليهم."...- ولكنَّك فعلتها ،ولم تدر- أيضا بالوقت،وأنت تسرع إلى البيت لتبديل ملابسك،عازماً على ترك المدينة كلَّها..وها أنت تعبر شوراعها الموحلة المظلمة،فى سبات ليلها الشتوى المطر ..وتتجرأ- للمرة الأولى - والجاً أول الطريق الزراعى فى مثل هذا الوقت،تتعجَّل الوصول للقرية المجاورة ...- " نعم أتعجَّل ولا أدرى

كيف تتجاسر قدماى ، غير مكترثتان بحفرهِ ومطبَّاتهِ ، ولا أدرى كيف أحصد مفاجآتهِ دونما مهلٍ أو تراجع .. أنا .؟!! .. أنا الذى أخاف الخلاء المظلم .. وتفزعنى حكاياه الراسبة فى الذاكرة "... - تخاف؟!! ..أنت الآن لا تخشى شيئاً ، سوى أن يراك أحد العائدين المتأخِّرين من الغيطان فيرتاب فى اتجاه خطوتك .. هل أفزعك تسارع الوقت ، بعدما توقفت - لبرهةٍ - مشعلاً عود الثقاب لتطالع ساعتك العتيقة .؟!! ...- " لا أدرى لماذا يمضى مسرعاً هكذا .؟! ، وأنا أخشى أن يفوتنى موعد صديقى القديم- أبو النُّهى ، الذى التقيته مؤخَّراً بعد سنوات غياب ، ووعدنى بالعمل معه "...- ولكنَّه لم يخبرك بأغلى أنواع السمك الذى يصيدهُ كما قال ، ولم تسأل أنت - فهل أغراك ما صار عليهِ من رغد،فنسيت أن تسأل ...- "أسأل.؟!!.. لماذا.. هناك البورى وأسطورته والقاروس واستاكوزا بحر المعدية -

قربة البوغاز المجاورة والحاضنة لبيته الجديد " ...

- بيبه .؟! .. ألا تذكر الآن سنوات الدراسة ، ومجيئك مراراً إلى دارهم العتيقة الوادئة بحجرتيها الضيقتين المسقوفتين بمروق الخشب المتوازية ، التى يواريها هباب السنين المتراكم .. هل تذكر .؟!.. أنت دخلتها -آخر مرة -يوم مجيئك معزّياً فى والده مدرس العربى ، الذى طالما غمرك بمعزّته الآسرة ...-

" لا .. لم أنس ، ولكن سرعان ما تلاشت فى عينىَّ جميع الصور القديمة ، وابنه يستقبلنى فى بيته الجديد ، الذى بناه شاهقاً بأدواره الثلاثة فوق نفس الأرض ." ...- ودخلت غير مصدق لما ترى ، إذ بهرك البيت بروعة تصميماته وديكوراته وأساسه الفاخر ، قبل أن تلتهم مع صاحبه وجبة الجمبرى - كبير الحجم - متلذّذاً بالوفرة .. وعندما شاغلتك نظرات خادمته الصبية ، متسلّلةً إلى عينيك ساهية وماكرة -سألته عن الزواج

فأخبرك بأنّه - هكذا - بدونه يمتلك جميع النساء ، ودون أن تدرى - تجاوزت السيجارة ، إلى ارتشاف الكؤوس معه ، قبل أنفاس الحشيش العبقة بزرقتها الساحرة ... -" نعم ولا أدرى إلى الآن كيف فعلتها ، وأنا أتذكر أصدقائى وتخميس السجائر فى حال ندرتها "... - ولكنّك مكثت معه للمبيت ، وتركتهم هناك هناك على رصيف الوقت ، يتقلّبون - كعادتكم - مع صفحات الجرائد ، متعثرين فى التناقض الموحش بين عناوينها الرئيسية المتفائلة وفكرة " أحمد رجب " الجارحة برسوم "مصطفى حسين " .. وعندما أيقظك النهار ، لم تكن معهم ، وهم يتلصّصون - كعادتكم أيضاً - على أسراب بنات المدارس المراهقات ،حال تهاديهن الفتان فوق أرضية الشارع ، ليوقظن فيكم رغبة نائمة ، توشك أن تستريح فى اليأس ... - " نعم تركتهم ، ولكن مضطراً للمرة الأولى ، فلم يكن أمامى سوى

قبول دعوة صديقى القديم - أبو النهى ، الذى التقيته بعد فراق السنين " ... - كانت محد صدفة ولولاها ما قابلته وما دعاك بعد أن تقطَّعت بكما السُّبل .. فقد باغت عينيك - فجأة - فى حفل الزفاف الأسطورى ، الذى أقامه تاجر الأسماك الشهير ، وتتحاكى المدينة بأصدائه إلى اليوم .. رأيته جالساً بين كبار التجار ... - " نعم وأدهشنى مجلسه معهم .. ومكثتُ أتساءل مرتاباً - هل هو بالفعل - محمد أبو النهى المحام ؟! .. وما الذى أجلسه بين هؤلاء .؟!! ..وما علاقته بتدخين الحشيش بعد ورعه العاقل .؟!!" ... - ولم ترفع عينيك عنه ، وهو يتضاحك مقهقهاً ، ومشيراً إلى مذيع الحفل بإشارات لم تفهمها، قبل أن يصعد المسرح مسرعاً ، وهو يخرج من جيب "سويتر " الجلد الأنيق " رزمة " أوراق مالية كبيرة ، ويقافر مبعثرها على جسد الراقصة ،التى تتلوى بموسيقى "لِسَّه فاكر"

..ورآك فجأة ، وهو عائد إلى مجلسه ، فأسرع إليك معانقاً ، وبدأت بينكما الأسئلة ... - " نعم كانت مصادفة فارقة ، وعدنى فى لقائها بالشغل معه ، ولولاها لما أخرجت تصريح الصيد ، وما تركت أصدقائى - هكذا الآن- على رصيف الوقت ، مسرعاً للحاق بموعده "...- مسرعاً .؟!لابل طائراً .. وها أنت تتأمل ساعتك من جديد ، بينما تتنامى جرأتك على ظلمة الطريق الزراعى ، متجاهلاً أخطاره المعروفة للجميع ، تشدُّك رغبة وحيدة للأمام ، فيما تتجَّمد أطرافك ببرودة "طوبة " القارسة ، التى تتسلَّل إليك من بين قامات النخيل و" هيش " البحيرة ، وتتعدَّد مصادرها ... -" ورغم ذلك ، ليس أمامى سوى التهام المسافات ، خفيفاً كالطيف - لاأدرى بمقدارها أو ما تبقى " ... - أنت اقتربت الآن ولكنَّك لا تدرى فى حلكة الظلام.. ويباغتك وميض ضوء خافت بعيد ،لايلبث أن يظهر -

حتى يعود مختفياً من جديد ... - " ربَّما هو - أبو النهى ، يحاول أن يعلن لى عن وجوده فوق كوبرى البوغاز ."... — نعم لقد اقتربت جداً ، وها هى دور " المعدية " المتناثرة الواطئة ، تلوح لعينيك قاتمة ، كالأشباح التى تحاول اختراق الظلام متلبسة عينيك الشاخصتين للأمام ، وأنت تسرع وتسرع وتستحثُّ قدميك حتى وصلت ... - " وصلت .؟!! نعم وفاجأتنى على الفور رطوبة التقاء البحر بالبحيرة ، فارتعدتُ مرتعشاً حتى اصطكت أسنانى ببعضها ولم أستطع إعادتهما إلى ثبات جديد " ... - يشغلك ارتعادك عن مطالعة الموعد فى ساعتك ، وعن صديقك الذى وعدك ولم تجده .. فهل يعاود مزاحه القديم و" مقالبه " معك .؟!! ... - " يعاود .؟!.. يا نهار اسود .!!..نعم يفعلها ابن الـ ...فكم أشبعتنى مقالبه فى المدينة الجامعية " ... - ولكن كيف تركته قبل أن يخبرك

بأغلى أنواع السمك ، الذى يحقق له الثراء .؟!!.. ولماذا تتأمل الماء هكذا من فوق الكوبرى وأنت توشك أن تموت بالرعدة.؟!.. هل تنتظر خروجه إليك من الماء .؟!.. ليس تحتك الآن سوى التقاء الماءين العذب والمالح ... " أعرف ، وهنا تجئ إناث أسماك البورى الكبيرة من البحر ، مجذوبة إلى العذوبة ، وتلفظ بيضها الـ " بتارخ" وترعاه ، حتى يكبر - زرّيعة - بحجم حبّة القمح ، وعندما يقوى على الحركة ، يدخل البحيرة منتشراً فى شتى الاتجاهات " ... - وتبدأ أسطورة البورى ، الذى طالما تحدَّثت عنه متندِّراً وساخراً ، إذ يسعى إلى التهام الأعشاب المائية ، فيكبر ويكبر..حتى يستفحل فى حجم الذراع،فينعم بصيده فقراء الصيادين،ويكفيهم حاجات البيوت ومصروفات المدارس...- "نعم لما ييجى موسم البورى- هكذا دائما كان أبى يقولها قبل أن يترك البحيرة إلى بلاد الغربة ...

- ولكنك الآن تتمنى لو تستطيع جمع " زرِّيعته " كلها ، لتقتلها جميعها قبل أن تدخل البحيرة ، فتقضى -بذلك- على أسطورة البورى ، الذى يسيل له لعاب كبار الموظفين ، ورؤساء مجالس الإدارات ، والقائمين على اختبارات التوظيف ، والمتحكمين فى إصدار تراخيص البناء والتوزيع على وحدات الجيش ...- " نعم أتمنى القضاء عليه ، حتى لا يقدمه أهل بلدتى قرباناً ، يفتح أمامهم جميع الطرق المغلقة "...- يبدو أنك نسيت فقراءالصيادين وفرحتهم بصيده ...-" لا،لم أنس فالأمر بالنسبة لهم سواء .. فالآن تتصارع مافيا الزَّرِّيعة ، لجمعها من تحتى - من هنا ، ويبيعونها لأصحاب المزراع الخاصة قبل أن تدخل البحيرة ، ويُفْلِسُ ماؤها من البورى وسائر الأسماك، فيزداد فقراء الصيادين فقراً ، بينما يزداد أصحاب المزارع ثراء فاحشاً "...-ياااااه..كيف طال شرودك فى هذا الصقيع القاتل.؟!

- حتى انتبهت فجأة على جلبة أصوات تتعالى فى الجانب الآخر للكوبرى ، وتستدير لترى ضابط المسطحات مع ثلاثة من عساكره ، صاعدين درجات الكوبرى من الأسفل ، ممسكين بأربعة شباب فارعين ، يسلسلهم قيد واحد .. ويتملى بهم الضابط رصيف الكوبرى ، وهو يصيح آمراً عساكرهُ :-

— اسحبوهم ع الحجز .. واعملولهم محضر صيد زريعة .!! ...

.." ويدهشه ثباتى فى أضواء كشَّافهِ ، فيقترب منِّى صائحاً وهو يسألنى :-

— وحضرتك واقف هنا فى الوقت دا بتعمل إيه .؟!!

— مِستنِّى مواصلات" لإدكو ."..

وهكـذا تجيبـه دونمـا ارتبـاك ، فيمـضى خلـف جنـوده إلى مقرهم، بينما تـسرع أنـت ، وتـستحثُّ الخطـى إلى بيـت أبـو النهى...- " نعم.. وها هو الآن صديقى ..يفاجئنى بوقوفه بـين أنفاره أمام بيتهِ، وأتأكدُ أنَّهْ كان جاداً فى وعده ولا يمـزح هـذه المرة " ...- هو فعلاً لايمزح ، ولكنك لا تعرف حتى الآن أغلـى أنواع السمك الذى حقق له هذا الثراء ..

– حظَّـك وحِـش ياباشمهنـدس .. عـساكر المـسطحات هـايجين النهاردة من أول الليل .

– شُفتهم وأنا جاى ع الكوبرى .

– تصدَّق قبضوا على عشره من أنفارى لحد دى لوقت .!!

– ليه ..هوَّه أنت بتصطاد زرِّيعة .؟!!

– كيس الزرِّيعة الصُغَيَّر بألف جنيه .. أمـا الـسمك الكـبير يـا عالِم تِسْرَح وتِصْطَاد ولاَّ لأ.

ولم تستطع النظر إلى وجهه الممسوخ بابتسامته البلهاء ، وتستديرُ واجماً بالصمت ، وتقصد كوبرى البوغاز عائداً ، بينما يتصايحً هو من خلفك : -

– مالك يا هندسة .. دى لوقت أطلّع الأنفار بطريقتى من الحجز .. والجوح يروق .

ولم تلتفت لصياحاته ، حتى يتركك راجعاً إلى أنفاره ... - "ياااه..هل هو صديقى أبو النهى فعلاً ؟!!..وكيف ترك المحاماة وذكرى أبيه الطيّب".. ذكرى أبيه ؟!!.. ها هى تعاودك الآن كما دائماً ، كلّما مررت فوق كوبرى البوغاز ذاهباً إلى الاسكندرية أو عائداً منها.. نعم تعاودك وتغمرك بدفئها ، وأنت تعود إلى مدينتك مبتسماً..لا تدرى معنى ابتسامتك المتكررة - رغم هول كلّ ما جرى تسرع وتسرع فتقول لك خطواتك المنفرجة : سوف تَظلُّ - دائماً - مطروداً من رحمة البورى وسحر أُسطورته ، وسوف تبقى دائماً دائماً خارج اللعبة .

شرفة وحيدة للأيام

تقابلنا كعادتنا كلَّ صباحٍ عند تقاطع الأزقَّةِ الضَّيقةِ ، وعندما اكتملنا أمام بلُوكَات العمارات السَّكنية. صدمنا ضجيجٌ حاد وجَلْبة أصواتٍ زاعقةٍ تجيء من وراء شرفتهِ الموصدة ، وأدهشتنا سيَّارة فارهة تقف عند عتبةِ بيته. فقال أحدُنا :

ـ أكيد جرالُه حاجة .!!

وعندما توقَّف جارهُ المهندس يستمع معنا، رحنا نتفحَّصُ السَّيارة وشرفتَهُ قليلاً، ثمَّ أسرعنا نتعجَّلُ صعودَ الدَّرجِ لِنطمئن عليهِ ، وعند الباب أفزعنا صُراخُ ابنهِ فيهِ ، وتصوَّرْناه عاجزاً يترجَّانا، فمكثنا نتجاوز تردُّدَنا ، حتى تطوع أحدنا بطرقات صاعقة على ضلفة الباب .

°°°°°

فى طفولتنا البعيدة كنَّا نظنَّ أنَّه سكنَ حيَّنا حديثاً ، أو اشترى هذا البيت من أُناس لم يعتادوا فتح شرفتهم أبداً ... وفى صبانا

أخبرنا أهلُنا أنَّهُ أول منْ سكن المنطقة قبل أن تزدحِمَ ببيوتِنا ، ولكنَّهُ ترك البيتَ لسنوات وعاد إليهِ برفْقة ابنه وابنته بعد وفاة زوجته ، حاولنا مراراً اختلاق فرصةً للتقرُّبِ منهم دونما فائدة - فقد فرض على بيته عزلةً مقصودةً حيَّرتنا ، وعندما دعانا للطعام وحفل زفاف ابنته التى سافرت مع زوجها إلى الخليج - أسعدتنا دعوتُه ، وبعد انتقال ابنه ليزرع أرض الخريجين فى الصحراء ،رأيناه وحيداً بشُرْفتهِ ، يُتابع ألعابنا أمام البيوتِ ، وإذا ما أطاح أحدنا بالكرة إلى شرفته ، تصرخ فينا أمهاتنا ،بيما يقف هو مبتسماً ، يستند بذراعهِ على كُرسِّيهِ لِيعيد الكُرَة إلينا معاتباً أمَّهَاتنا وهو يقول :-

- خلوُّهم يلعبوا بس م يحدفوش الكورة هنا تانى .

كان ينتظرنا كلَّ صباحٍ بدوارق الماء ، لنراه وهو يسقى أحواض حديقته الصَّغيرةِ ، و ظلَّ ينتظرنا دائماً ،حتى عندما كبرنا

وتخرجنا وذهبنا إلى أعمالِنا ووظائفِنا ، وعندما لاحظنا ساقه المُتعبة تعوق حركته قلنا :-

ـ متتعبش نفسك احنا ح نسقيلك الزرع .

لكنَّهُ رفض - مراراً - رغبتنا فاستجبنا لرغبته ، وأخبرَنا أهلُنا - فيما بعد - أنَّ ساقه هذه صناعية ، وأنَّهُ مِنْ أبطال الحرب القدامى ، وأنَّه ظهر كثيراً فى التليفزيون بعد الحرب ليحكى كيف دمَّر عدداً كبيراً من دبابات اليهود بمدفعٍ ثقيلٍ جدًّاً حملهُ بمُفْردهِ ، وقالوا أيضاً جاءت صُوْرتُه مرَّاتٍ كثيرةٍ فى كلِّ الجرائد ، فتمنَّينا أنْ يحكى لنا ، فجمعنا - ذات يوم - بالشُّرفة وأمتع خيالنا بأزمنةٍ وأماكن وأحداث لا نعرفها .. ومِنْ يومها أصبحنا مُرِيْديهِ ، وكنَّا نرى الأزهار تتفتَّحُ حول شُرْفتهِ ، وتميل الأشجارُ الصَّغيرةُ بأغصانها عليهِ فرِحةً برعايتهِ لها وبرقَّة صداقتهِ عبْر السِّنين .

ooooo

فتح الباب لنا ابنه،ورغم مفاجأة حضورنا - بدا ابنهُ مُنْشرِحاً لرؤيتنا وأدخلنا مرّحِباً يقول :

ـ جيتوا ف وقتكم هوّة بيْحِبّكُمْ ويقدّركمْ أرجوكم تِقْنِعوه .

رأيناه على كرسيِّهِ الخيزران في جلبابه الأبيض ، تعلو كِتفيهِ " كُوفِيَّتهِ " الزَّرقاءُ ، وإلى جوارِهِ يقف رجلان غريبان فى بدلتين أنيقتين ، يحمل أحدهما حقيبةً سوداء ويحمل الآخر جهازاً ينام فى" جرابهِ " .. تفحّصْنا الرّجْلين بنظرات الفضول لِلحظات ، وفاجأتنا دمعتان تنحدران فى أسى على خدّيهِ، فأدركنا - على الفور - توسُّلات نظراتهِ الخاطفة إلينا .

ooooo

بالأمس كنَّا عائدين نخترق الصَّقيع والظّلامَ إلى بيوتنا ، ومررنا تحت شُرفتهِ فرأيناه ، ورآنا جيِّداً عِبْر ضوء "لَمْبتهِ" الصفراء،

التى ضوت فى عيوننا ، وكعادتنا قلنا " مساء الخير " وواصلنا سيرنا إلى آخر العمارات التى خبَّأت بيوتنا خلفها ، وعند أوَّل زقاق افترق أحدنا ، وبعد خطوات تركنا آخر قائلاً : -

ـ مردِّشْ علينا .

ـ زَىْ كُلِّ يوم مِن فترة طويلة .

أجبنا زميلنا وانزوى كلٌّ مِنَّا إلى بيته تؤنسنا ظلالُ أجسادنا على الأرض ودخان أنفاسنا الأبيض ، وطرأ إلى خاطرى أنَّ أحدنا أغضبَهُ بفعل أو قولٍ دون أن يدرى ، أو رُبَّما أحدٌ من جيراننا .. وظلَّ عكوفه عنَّا يلازمنى إلى عتبه بيتى وحتى خلودى إلى فراشى و النوم .

°°°°°

قطع جاره المهندس توحُّدنا بدمعاته الصامتة سائلاً ابنه : -

ـ نِقنِعُهْ ب إيه يا أستاذ علاءْ .

ـ تصَوَّروا أبويا رافض يساعدنى ف أزْمِتِىْ .!!

وانشغلنا عنهُ بكلمات ابنه ، الذى راح يخبرنا بمأزقه مع " بنك " التنمية الزراعيَّة، الذى يُهدِّده بسحب الأرض والسَّجن إذا لم يسدِّدْ ما اقترض .. طرأ إلى خاطرى أنَّ ابنه يفكر فى بيع البيت للرَّجُلين الغريبين ، ولم أتصوَّر حدوث ذلك ، فتجرَّأتُ أخترقْ رفاقى مواجهاً ابنهُ والرَّجُلين بحدة أقول : -

ـ يعنى عاوز تبيع البيت و تسدِّد البنكْ .

ـ لا د الموضوع مجرَّدْ كتاب يحكِيْه مع كام صورة كِدَه .

وفاجأنى ابنه مُهوِّناً بابتسامة خاطفة ، وانتحا بجاره المهندس والرَّجُلين جانباً يتهامسون ، واقتربنا نحن من كُرْسِيِّهِ لعلَّهُ يأنس بنا من حولهِ ، فيكف عن دموعهِ ونظراتهِ التى تطوِّقنا بتوسُّلاتها ، ربَّما يبوح لنا بشيءٍ بعد طول صمتٍ ، ألفناه فى غدوِّنا ورواحنا اليوميِّ تحت شرفته الآسرة .

٥٥٥٥٥

لم نكن نراه فى أيَّام الجمعة ، وتظلُّ شُرفتهِ موصدة فنعرف أنَّ ابنه معه بالدَّاخل فى زيارتهِ الأسبوعيَّةِ .. وباقى أيَّام الأسبوع نراهُ دائماً بشُرْفتهِ يتصفَّحُ الجريدة ، أو ينتظر البوسطجى بخطابات من ابنتهِ ، ومراراً رأينا البوسطجى بدرَّاجَتهِ تحت الشُّرفةِ يتفحَّصُ عدَّة خطابات لِيناولهُ أحدَها ، وبعد أن مَرَّت شهور عليهِ بلا خطابات أو بوسطجى، طلب منَّا أن نسأل فى البوستة الجديدة ، ورحنا .. وعدنا نخبره بأن الخطابات تأخذ زمناً طويلاً - كما قالوا لنا ، وأنَّ بعضها يضيع فى الطَّريق ، فعقَّبَ يقول :-

ـ حتَّى البوستة مبقِتْش زَىْ زمان هيَّهْ كمانْ .

وأعطانا دوارق الماء لِنسقى له الحديقة قبل أن ننصرف .. وهجرتْهُ الخطابات طويلاً فلم يعد يسأل عنها ، حتى أسعدنا

مجيء البوسطجى تحت شُرْفتهِ بعد شهور أخرى ، ولكنّه رفض تسَلُّم الخطاب ورأينا دمعاته تفرُّ - رغماً عنه - من بكاءٍ مكتوم ، وعندما انصرف البوسطجى عائداً بالخطاب، سمعناه ينادى عليه ليتسلم الرسالة ، ودخل حجرتهُ كى يتحسَّسَ دفء الكلماتِ التى كان فى انتظارها دائماً .

°°°°°

أقنعَ صاحبُ الحقيبةِ جاره المهندس وجاءنا بهدوء الواثق ، يُمطِر وجوهنا جميعاً بابتسامتهِ ، مُهوِّناً يقول : -

ـ الموضوع بسيط جداً .. مُجَّرد كتاب ح يحكى فيه بطولاته .. ح يكون كتاب الموسم وأنا ح أدفَعْلُه عشرين ألف جنيه .. يسدِّد علاء منها البنك ويبيع الأرض ويسافر أمريكا زى ما هوه عاوز.

تساءلت نظراتُنا كيف يرفض مجداً كهذا - الذى فيه أيضاً إنقاذ ابنه ، وأدركنا أنَّ دورنا قد حان ، هو فعلاً يُحبُّنا ويقدِّرُنا -

ولكن كيف لنا أن نُقنِعه وهو يرفض منذ فترة حديثنا أو حتى رد تحيَّتِنا .؟!!..ولا ندرى إن كان لم يزل قادراً على النُطقِ أم لا .؟!!.. تجمَّعنا حول كُرْسِّيهِ راغبين فبادرنا جارهُ المهندس وراح يقنِعهُ .. وصدمتنا الكلمات وأفزعتنا رغبتهم وإلحاحهم عليهِ بأنْ يتنازل عن الكلامِ فى السِّياسة، لكى توافق الرِّقابة ويخرج الكتاب للنور ، يريدونه بطلاً مُحدَّداً بكلمات الحرب فقط .. أدركنا - على الفور - ما يودُّ البوح به فى الكتاب، لقد حكى لنا من قبل كيف فصلوه من وظيفتهِ الإدارية التى كرَّموه بها، وأعطوه معاشاً استثنائياً يكفيه بالكاد - بعد أن رفض التَّصالُح مع اليهود فى حوار إذاعى ، أكيد هو يَودُّ إعلان رأيهِ من جديد فى الكتاب ، تساءلت نظراتُنا لماذا يفزعهم رأيه الآن بعدما أصبحنا نتغنَّى بالحرِّية ،وتزاحمنا فى لافتاتٍ عريضة كالإعلانات .. أحسست بدموعهِ تنحدر على

خدِّى ، فوجدتنى أخترقُ رفاقى مَّرةً أخرى ، لأنحنى جاثياً أمام كُرْسيّهِ الخيزران ، أقَبِّلُ كفَّيهِ وسط دهشةِ الجميع ، فاعتقدوا أننى أحاول إقناعه وأرتجيه بطريقتى ، بينما أدرك هو إحساسى به، فراحت يده تداعب أعلى رأسى برفق وحنو .. ووقفوا يائسين من طول ترقُّب صمتهِ الدَّامع الحرون .

°°°°°

ذات صباحٍ بعيدٍ رأينا الجرَّافات و "اللوادر" الثقيلة تلتهِمُ سورَ حديقتهِ ،فاقتربنا مسرعين ، وقالوا لنا أنَّ الحىَّ ينوى بناء عماراتٍ سكنية جديدة بالمنطقة .. سمعناه يصرخُ فى العُمَّال معترضاً، تضيع صرخاتُه بين عواءِ الجرَّافات وأنين التُّروس ، وخرج من شُرْفتهِ متمدداً بجسدهِ أمام الجرَّافات ..وراح العُمَّال يجرُّونَهُ بعيداً ، فحملناه لأعلى وأجلسناه على كرسِّيهِ بالشُّرفة.. وبعد أيامٍ ارتفعت أعمدة الخرسانات الكثيفة ،

فحجبت بيوتنا عنهُ ، ولم نعد نراه إلاَّ فى الطَّريق إلى العملِ أو عند عودتنا.. ومن يومها نُلْقى عليهِ تحيَّة الصَّباح فلا يـردُّ كمـا كان من قبل ، وكذا فى المساءِ ، فقال أحدُنا :-

ـ أكيد غضبان مننا عشان منعناه عن العمال والجرافات .

وطال صمتُه معنـا فحـسبناه فقد النطـق حزنـاً وكمـداً ، وتألَّمنـا لِرؤيتهِ على هذا الحال .

°°°°°

انتفضتُ من أمام كُرْسِّيهِ مُبدِّداً ترقب ابنه والـرَّجُلين الغـريبين أقول :-

ـ يعنى صفقة يضيع فيها تاريخه وبطولته .؟!!

وبادرنى ابنه بنظـرةٍ غاضـبةٍ جمَّـدَتْنى ، فـانكمش الرِّفـاقُ مـن حولى دونما اتفاق ، ورأينا نار الغيظ تتبادل حسرة الإحباط فى

عيون الرَّجُلين ، ونهرَنا ابنه ناحية الباب متهوِّراً يصرخ فينا : -

ـ بطولةْ وتاريخْ .. بطولة إيه وتاريخ إيهْ .؟!!

وتماثل التاريخُ أمامنا جبلاً شاهقاً، يَتلقَّى بجلَدٍ وبلادةٍ صرخات ابنه ، التى تمادى تهوُّرها المهدور بيننا ، وقادت الصَّرخات أهل الحىِّ ، فجاءوا وأشبعو الباب طرقاً ففتحنا ، ورأيناهم مفزوعين يخترقوننا ليوقفوا ثورة ابنه فأشعلوها .. وعندما رأى ابنه يجلدنا جميعاً بالتَّاريخِ ويجلدُ التاريخَ بنا ، تركهُ يجرفنا بذكرى الجرَّافات التى التهمت يوماً سور حديقتهِ ، وتركه يفصلنا عن أنفسنا بذكرى فصله من وظيفتهِ التى يوماً كرموه بها . تركهُ يقهر رغباتنا وغرائزنا بحجم معاشهِ الاستثنائى الضئيل .. وخشينا على ابنهِ من الصُّراخ الثائر المتهوِّر وانفجار البكاء ، وَفوجئنا برفض أوراق ابنهِ بالفنِّية

العسكريةِ وتكشَّفتْ أسرار أخرى ، لم يَبُحْ هو بها لنا من قبل، وأغرقنا إحساس بالتخاذل تِجاهِه يوم الجرَّافات .. وعندما رأى معنا ابنَهُ يخِرُّ على الأرض ،انتفض من كرسيه واقفاً.. وأطبق الصَّمتُ للحظات .. وساعدناه في حمل ابنِه إلى الأريكةِ فانحنى يطمئِنُّ عليهِ مقبِّلاً رأسه ، ثم التفت للرَّجُلين الغريبين قائلاً : -

ـ موافق على الكتاب وعلى كل شروطكم .

وعندئذ تهلَّل وجهُ صاحب الحقيبة - وأخرج له العقد ليوقِّعه ، وأخرج الرَّجُل الآخر كاميرا التصوير من "جِرَابها " وصوَّبَ عدستها نحوه، فرأينا أصابعه ترتجف بالقلم فوق الورقة ، وهيَّأ المصورُ له جهاز الكاسيت، فراح يحكي ويحكي .. ويستعيد أمامنا روعة بطولاته المتجدِّدةِ .. وقبل أن تومض الكاميرا، تدفَّقت دموعٌ أخرى على خدَّيهِ فقال المُصَوِّر : -

ـ لحظات أرجوك عشان الناس تشوفك مبتسم دايماً .

وانسحبنا فى هدوء إلى الشارع واحداً فواحداً .. ورأينا شُرْفَتَهُ الوحيدةَ موصدة ـ لأوَّل مرَّة ـ فى غير يوم الجمعة .

سيوف

من خلف زجاج السيارة ،ودَّعتْ عيوننا بنايات الأسكندرية الجامدة وزحامها الصَّخيب ..وعندما عبرنا كوبرى " البوغاز " إلى مدخل مدينتنا ،بدأت عيوننا تصافح قامات النَّخيل الشَّامخُ عن يسارنا، فيما تمتلىء صدورنا بهدوء البحيرة الممتَّدة عن يميننا .. وشرع كلُّ منَّا فى إخراج أجر السائق ، استعداداً للنزول بعد لحظات .. وقبل وصولنا للمحطَّة ،فاجأتنا طلقات ناريَّة متتابعة، ينداح دويُّها مخترقًا أسماع الآفاق ،وأعقبتها سحائبُ دخان كثيف يحجب عنَّا رؤية أىَّ شىء .. عندئذ انقبضت قلوبنا ، وشخصت العيون ،وهى تتوجَّس فضول ما جرى بالنظرات المندهشة.. وبالكاد استطعنا أن نرى السيارات التى كانت تسبقنا، وهى تدور جميعها للخلف عائدة .. ومال أحد سائقيها قائلاً لقائد سيارتنا :-

ـ البلد مقلوبة .. ارجع ندخل من الطريق الزراعى أحسنْ.!!

دارت بنا السيارة ، ولكن لم تدُرْ أعناقنا .. إذ ظلَّت عيوننا محدقة للخلف، تطالع عبر الزجُّاج سرَّ هذا الدوىِّ الرَّعيد،ودخانه المتكاثف كالجبال عند مدخل مدينتنا المعروفة بهدوئها .. تواترت بيننا التساؤلات ،حائرة بلا أيَّة أجوبة، أو أيَّة توقعات تشفى دهشتنا .. وتسارعت السَّيارات العائدة فوق ممرات غير ممهدة بين غيطان النَّخيل ،فبدت كالفئران المذعورة،وهى تتسلل فى شتَّى الاتجاهات، لتطوى مسافات غير مألوفة - بحثاً عن بدايات شوارعنا .. وعندما توقَّفت سيَّارتنا، انفرطنا منها مسرعين الخطى،نتعجَّل الأخبار ، فرأينا النِّساء على عتبات البيوت وفى الشرفات والنوافذ،بينما يتزاحم الرِّجال والشباب والصِّبيان والأطفال فى جميع الشَّوارع .. توقَّفتُ مرَّات تلو الأخرى منصتاً للأحاديث دون تساؤل ، فتجمَّعت لدى تفاصيل متفرقة عن الواقعة - " منصور تاجر

المواشى مات بالضرب المبرح فى مركز الشرطة أثناء نظر شكوى ضِدَّهُ تقدَّم بها أحد عملائه الفلاحين من قرية مجاورة ..وفور انتشار الخبر تجمَّع أهله عند المركز وتبعهم غيرهم من الحمَّالين و الباعة الجائلين ومشاهدى مباراة كرة القدم فى دورة الساحة .. وردَّ عليهم جنود الشرطة برصاصات أصابت أجساداً أعرفها وأخرى لا أعرفها .. وأشعل الأهالى النيران فى مبنى مجلس المدينة والسنترال .. حتى جاءت قوات أمن كثيرة من المحافظات المجاورة " .. لو جاءنى خبر كهذا فى وحدتى العسكرية – ما كنت أصدقه أبداً ، فأهل مدينتى يقدِّرون جيِّداً كلمة حكومة، ويخشون حتَّى المرور أمام مركز الشرطة، ويرعبهم دائماً الاستدعاء إليه.. هل أثمرت يساريَّات "لطفى نور الدين " المغترب فيهم .؟.. ليس أمامى سوى تصديق هول ما يحدث وما أرى ، وأنا أنضمُّ للحشود المتدفِّقة من كل اتجاه

إلى شارع الجبّانة .. سمعت الرّجال وهم يحذّرون الأطفال ويأمرونهم بالعودة للبيوت .. وتنامى إلى سمعى - أيضاً - أن عربة الإسعاف قد جاءت بجثث الموتى لتشييعهم ،بعد صفقة سرّية بين قادة الأمن ومسئولى إدارة المدينة ،تعهد فيها نائبنا البرلمانى الثرى— بأن تمرّ مراسم الدّفن ليلاً وبسلام مقابل الإفراج عن بعض أقاربه .. ويبدو أن خبر الصّفقة قد تسرّب، ولذا قامت قيامة المدينة كلها فى شارع الجبّانة .. تدافعتُ بحماس مجنون أخترق الأجساد لأتابع الجنازة ، فعاد بى طوفان الأجساد الهادر للخلف مع انطلاق دوىّ قنبلة مثيرة للدُّموع، وتَصاعد دخانها الذى ملأ الفراغ حولنا .. رأيت جارى سليمان قادماً من الأمام ،يبحثُ عن بعض زجاجات المياه ليبلل بها القنابل على الأرض فيمنع بذلك انفجارها وقال لى : -

ـ تصوَّر الواد سيوف اتبوَّل على قنبلة ومسكها ف إيده ورماها على العساكر . ! !

قالها ..ثمَّ ضاع منِّى سليمان قبل أن أعرف منه - أين سيوف ابن المرحوم "عم هاشم" جارنا .. أفزعنى أن يكون الولدفى المقدمة ،وفى مواجهة القوات الخاصة ، فحاولت اختراق الأجساد بكل ما أملك من قوى، لأعود به إلى البيت – حيثُ أخواته البنات المتشحات بالسواد مع أمهم منذ سنوات .. لابد قد وجد فى هذا الزحام الفاضب ما يوافق تمرُّدهِ العنيد - فكان فى المقدِّمة، ولم يجد من يحذِّرهُ ليرجع مثل باقى الأولاد .. ولا أدرى لماذا يعاودنى الآن إحساس الأبوة ، الذى غمرنى قبل سفرى وأنا اصطحبَهُ من يده، لأصالحه على المدرسة بعد تكرار هروبه منها ..و كنت قد وعدتُ أمَّه بمساعدته فى دراسة العام القادم حال انتهاء تجنيدى .. ولا أدرى هل راقت له المدرسة.؟!.. أم عاد منقطعاً عنها ، يشاغب

الأولاد فى ألعابهم بالشارع كعادته ، ولا يكفُّ عن شجاراته المتكرِّرة ، وقذف نوافذ البيوت وأبوابها بالحجارة .؟.. فى وجودى - دائماً - لابدُّ أن تدعونى أمُّه للتدخُّل ، واثقة فى طاعته العمياء لى - إذ لا يكفُّ إلاَّ بعد خروج كلمة " عيب " من فمى ، بينما يتمادى اشتعاله المتمرِّد عند سماعها من غيرى .ولا أدرى حتى الآن سبباً لذلك ..فهل وجد فىَّ متمرِّداً كبيراً وعنيداً مثله فامتثل بى ولى .؟!. ربما ، أو ربما للفرحة الطاغية التى تطفو على ملامح وجهه الأسمر - كلما كافأته بالعشرة قروش ، بعد كلِّ علبة سجائر أرسلهُ ليشتريها لى .. ولكن كيف يتبوَّل على القنبلة المثيرة للدُّموع ، ويمسكها بيده ليردها على العساكر .؟ - كيف ومَنْ أوحى لهُ بهذه الفكرة فى هذا الطوفان .؟ .. جرفتنى الأجساد للوراء رغم اندفاعى العفى ..

- الإسعاف جابت الميتين .. ودخلت الجبَّانه .. وقفلوا الباب .

هكذا صاح شاب قادم من الأمام ، فانفجرت صياحات الحناجر مدويَّة بالهتاف " الله أكبر " .. وسرعان ما اندفع طوفان الأجساد الهادر - إلى باب الجبانة برغبة الدخول عنوة ، فوجدتنى عند الباب ،مواجهاً لحشود القوات الخاصة وقتامة ملابسها السوداء .. وفاجأنى انجذاب " أفرول " الزيتى من الوراء ،فاستدرت صائحاً: -

— سيوف .؟!!.. يخرب بيتك ..إرجع ياد مع العيال ورا عند المراجيح .

وانفلت كتفه من يدى ، وهو يمرق بين الأجساد صائحاً: -

— يا عم سبنى .. والله لمطلّع دين أم الحكومة دى .

وعندئذٍ اندفعت القوات السوداء ، لإبعادنا بالخيزران وعصيهم المكهربة ورصاصهم المطاطى .. ثمَّ أعقبها انفجار مثيرات الدُّموع ، فانداح دخانها يتكاثف هائجاً ومجنوناً ، فتراجع طوفان الأجساد للوراء مع طلقات الرصاص الحىِّ ، وفرَّ إلى تفرعات الشوارع

الجانبية مَنْ استطاع ، بينما وقع على الأرضَ مَنْ عجز .. وفور وقوفى من بين الواقعين ، هرعت إلى الزقاق المؤدّى إلى درانا ولم تكد تمضى خطوات حتى توقّفتُ ، مُنضماً إلى دائرة من الرجال والشباب والأولاد– يتأملون بقعة دم طازج على الأرض ، يمتدُّ منها خيط أحمر، متعرجاً إلى الأمام .. وسمعت أحد الواقفين يصيح غاضباً : -

– مش كفاية إللّى ماتوا .. ولد تانى أخد رصاصتين ف بطنو والناس جرت بيه ع المستشفى .

– يا ترى ابن مين ؟

– والله ما احنا عارفين .. أهو بنى آدم مننا وخلاص.!!

وعندئذٍ تقافز سيوف إلى خاطرى ، فأسرعت مهرولاً إلى المستشفى ، وأنا أتعثر بالأسئلة ، لا أدرى هل – هو أم نزف صبيانى آخر.؟!! .. وهل أقنعه تحذيرى بالعودةِ إلى الوراء فنجا بطاعتى كالعادة.؟!! .. أم أنَّ رصاصة بلا قلب أودعت تمرُّده العنيد فى حقائب الماضى .؟!

إيقاع الوصايا

رغماً عنها - تنقبض روحها ، وتخالجها هواجس تجربة ، لا تدرى هول مرارتها ... ولا تفلح طقوس العمل فى شغلها عن القادم المريب .. تحاول التوحُّد بأوراق الصادر والوارد ، آملة فى سكينة ثباتها المعهود .. تبحث عن محاضر قديمة ، وتراجع حسابات تجارية هامة ومعقدة ، تاركةً زملاءها- كعادتهم - يتناوشون الحكايا .. ويطالعون الجرائد متثائبين ، يتنقلون بالتعليق من حادثة، إلى خبر رياضى ، إلى آخر سياسى أو فنى ، حتى ينسحبوا شيئاً فشيئاً إلى شئونهم الخاصة ، يتبادلونها بالتأويل والتحليل ، فيما تشاركهم هى بأذنيها فقط مثلما تفعل منذ عام تقريباً ، هو عمر وظيفتها ووجودها بينهم .. يثتبك بعضهم بالكلام ، سائلين عن ورقة أو " دوسيه "، بينما يحاول البعض الآخر استدراجها بالحديث ، راغبين فى كشف غموضها .. تجاريهم - كعادتها - ولكن فيما لا يخصها ، بينما

تتحفظ فى شئونها الخاصة وعزوفها عن الزواج إلى الآن ، رغم زحام المتقدمين لخطبتها .. يحاولون معها - مرةً بعد أخرى طوال اليوم - دونما جدوى .. وتوشك أن تبوح لزميلتها " سلوى" أثناء عودتهما معاً من العمل - ولكنها تحبس الكلام فجأة ، مع طنين إيقاع الوصايا فى أذنيها - "لا زيارة .. ولا استقبال .. ولا كلام فى الأسرار مع حد غير أخوكى .. أنا رفضت الإعارة وانتو صُغيَّرين.. ومسافرة دى لوقت عشانكم انتو "- وهكذا تسافر الأم ، ولكنها تبقى حاضرة بوصاياها .. ويداهم ابنتها الآن شعور يتم جديد ، يتنامى بين الحين والآخر ، فتلعن شيطان السفر ، الذى نأى بحبيبها من قبل فى دراسة الخارج ، وبأخيها اليوم ، إذ تعود إلى البيت وحدها ، مترددة فى الدخول ، تقف فى مواجهة الباب ، متمنيةً ألاّ تنتهى دورات المفتاح فى الـ "كولون".. وتود لو تمضى كل دورة بيوم كامل، حتى يعود أخوها

من مأموريـة سـفره الطـارئ للقـاهرة - حيـث فـرع الـشركة التـى التحق بها مؤخرا .. ولو لا علمها بمعنى " تحت التمـرين " - مـا وافقت أبداً على سفره ، وما ارتخت وحدة قابضة الوطء ، تتـذوق ثقل ثوانيها ودقائقها للمرة الأولى .. رغماً عنها - تنتهى دورات المفتاح ، فتدخل مرتابة الخطى ، وتغلـق البـاب وراءهـا جيـداً ، وتبالغ فى تأكيد إحكامه على غير العادة .. ثم تدخل حجرتهـا ، مستلقية بحقيبة يدها على السرير .. تُحدِّق فى السقف واجمةً .. وبعد لحظات تـنهض متأرِّقـة، وتحـرِّر جـسدها مـن " بلوزتهـا" الحريـر المـشجرة ، ثـم " جيبتهـا " الـصوفية الـسوداء . وتقـف بالـ" كـومبليزون " الـشفاف أمـام المرآة،فتـشهق المـرآة ببيـاض جسدها الساطع ، وتدعوها لطقوسها اليوميـة - ولكنهـا لم تتفقـد زهور جسدها المرمرى بباطن كفيها كالعادة ،ولم تَسْتَل خصلة من شعرها الكستنائى الناعم على ذروة جبهتها ،كما تفعل كل يـوم .

ولم تنفث بخار أنفاسها الحارة على صفحة المرآة ، لتكتب عليها بإصبعها . " فى أنتظارك يا عمرى" - رسالتها اليومية إلى حبيبها الغائب البعيد .. " يا اااه حتى طقوسى تعاندنى .؟!!" - تهمس لنفسها واجمةً بالحسرة.. ثم ترتدى روبها ، وتخرج متثاقلة للمطبخ ، تُعِدُّ غداءها ، وتجلس إليه مرتابة - كأنها تُحدِّق فى طعام مسموم . . وبعد لقيمات صغيرة ، تخرج للصالة لائذة بالتليفزيون، تتابع برامج مُملَّة . تلجأ إليها بإرادتها للمرة الأولى . . وشيئاً فشيئاً يداهمها الضَّجر ، فتقودها قدماها لحجرة المكتب الشاهدة على عُمْر تفوُّقها وعشقها للقراءة . . تسحب كتاباً من مجموعة الألغاز التى تستهويها إلى الآن ..وتقرأ على غلافةِ "أشباح الليل" ، فتشرد طويلاً قبل أن يسقط الكتاب من يدها إلى الأرض .. تخرُّ بجسدها إلى كرسى المكتب ، وتلتقط من الدرج رسائل أمها ، تقرأها رسالة تلو الأخرى ، ثم تلتقط ورقة

بيضاء ، وتُشرِع فى الكتابة ، فيسطو على وجهها تركيز المتحنين .. تتوقف بعد كلمات قليلة تفيض بالنداء والرجاء و الحنين .. وتخرج لشرفة الصالون المطلة على الشارع ، فتتأمل شمس الغروب المنسحبة فى الأفق البعيد .. تشخص عيناها متشبثتين بالمدى ، وتطمئن وتتجاسر خوالجها بالمزيد ، فتخال أخاها إلى جوارها بالشرفة مثل كل يوم ، يهمس كالعادة وهو يدعوها للخروج .. وسرعان ما تستجيب ، ويخرجان معاً إلى الشاطئ .. يترقَّبان سقوط قرص الشمس الأرجوانى فى ماء البحر من بعيد .. ويبتلعهما صمت الغروب المطبق ، فيشرد كلاهما - كالعادة - إلى ذكريات تَخصُّه .. هى تستعيد همسات فارسها الغائب الحاضر فى نبضات قلبها .. وهو يصطدم بكلمات ابنة خاله الثرى " الفقر يقتل الحب " - فتحمله ذكرى الكلمات على قدمين من عجز وحسرة ، ودون أن يدرى ،يحبس فى أخته

خاطر الذكرى ، معلناً عن بداية العودة إلى البيت .. ويعودان معاً، فيظنُّ كلُّ مَنْ يراهما - ولا يعرفهما - أنهما زوجان أو خطبيان ، تجمعهما همسات الحب بدفء اللقاء .. تفاجئُها طرقة باب الشرفة بالحائط من ورائها.. فعاودها الهواجس مع انتباهها ،وتتأمل الناس - تحتها - بالشارع ، وهم يعودون لبيتوتهم جماعات تلو الأخرى . صبيان قادمون من الساحة فى ملابسهم الرياضية ، أسراب فتيات منصرفات من حصة الدرس الخصوصى ، آباء يصطحبون أطفالهم وزوجاتهم ، عائدين من الشاطئ .. الجميع يسيرون فى جماعات ، حتى الحمام فى الهواء، يقصد أبراجه القابعة فوق الأسطح ، أسرابا فأخرى .. ترتعد - فجأةً - منقبضة ، مع رنين جرس الباب المدوِّى فى أذنيها كالصَّاعقة .. وتترنح مرتبكة بين جدران قوية من الخوف والحيرة - " هل تفتح أم تترك الجرس يرن حتى ينصرف

الواقف.؟!!" .. تتساءل مسرعة إلى الباب ، وتضع عينها اليمنى فوق عدسته السِّحرية مغلقةً عينها اليسرى .. ترى خالد صديق أخيها ، يجئ في زيارة لم تتوقَّعها أبداً ، حتَّى في وجود أخيها - المخلص معها لحدود الوصايا ، رغم عزوف الجيران و الأصدقاء عنهما ، ونعتهما بالتَّغيُّر والجفاء والانطواء .. " وبعدين .؟!" تتجمَّد - للحظات - في مكانها متعثرة بالأسئلة وتقرِّر أن تترك الباب مغلقاً حتَّى ينصرف .. ينقطع الرنين بعد لحظات خانقة ، فتهرع إلى الشرفة ، وتوارى جسدها متلصِّصةً بعينيها ، فتراه خارجاً من باب العمارة إلى الشارع ..وتخشى إن كان يعرف بسفر أخيها ، فتداهمها هواجس احتمالات كثيرة ومفزعة .. تَتردَّد في ارتداء ملابس الخروج ، ولكنَّها ترتدى غير ملتفتة لأصداء الوصايا في أذنيها ..تجد نفسها في الشارع،الذى بدأ يستقبل ظلام الليل ويخلومن زحام العائدين ..تقتحمها المسافات فلا

تدرى بالشوراع الفرعية التى عبرتها .. تتوقَّف مطرقةً على بـاب بيت لم تدخله من قبـل .. تنفـرج ضـلفة البـاب ، فتـدخل باكيـة وهى ترتمى فى أحضان صاحبة البيت .. وتتراجع فجأة للـوراء . منتبهة على غرابة ما فعلت ..

ـ آسفة يا طنط - أنا هند زميلة سلوى فـى الـشغل .. كلمتنـى عـن مرضك وجيت أطمئن عليكى .!!

ـ اتفضلى يا بنتى .. اتفضلى .. الحمد لله على كل حال .

ـ أمال فين سلوى .؟

ـ راحت تشترى دوايا .

ـ طيِّب .. ح أبقى أجيلكم مرة تانية .

ـ ما يصحش يا بنتى ..إتفضلى لحد ما تيجى سلوى .!!

ـ آسفة ياطنط .. لازم أرجع قبل ما يقلقوا على فى البيت .

تصيح خارجةً بارتباك الخطى ، تعبر تفرُّعات مضيئة ،وأخرى خافتة ، فمظلة .. وتصل لبداية شارع البيت ، فتراه خالياً تماما من المارة ، يختنق بأضواء كئيبة ، تنسرب من مصابيح صغيرة فوق لافتات المحلات المغلقة .. ينفرد الشارع بها فتتأمَّلهُ .. وتشعر بأنفاس لاهثة تلاحقها ، ويتوالى خلفها إيقاع مفاجئ لقدمين على الأرض ، بينما يمتدُّ ظلها مقروناً بحركة ذراعيها للأمام والخلف ، ترى أسفلت الشارع مرآة مشوهة ، لاتعكس من قوامها الفارع المشوق سوى اختلال أبعاده . . تنفرج قدماها بالخطوات المتسارعة .. وتتلاحق خلفها الأنفاس اللاهثة ، ويتصاعد إيقاع الأقدام فى أذنيها .. يتبادر إلى خاطرها حجم الشخص المهرول من ورائها .. تتخيَّلهُ وحشاً برِّيَّاً يتطلَّعُ لاقتناص فريسته .. يرتجف قلبها وترتعد أطرافها .. وتتلاحق أنفاسها مع الأنفاس اللاهثة .. وتطمئن - لبرهة - مع انقطاع

الأنفاس والإيقاع بمجئ سيارة مضيئة ، تسرع تجاهها من أول الشارع .. وفور مروق السيارة من جوارها للخلف، تعاودها الأنفاس لاهثة والإيقاع مهرولاً من جديد .. وتتلبَّسها ارتعادة تخيُّل ما ورائها ، فتنتقل من المشى السريع إلى العدو ، حاشدة كل قواها فى ساقيها .. تتواتر الأنفاس اللاهثة متضاعفة مع علو الإيقاع فى أذنيها .. وتُقرِّر أن تستمرَّ إلى باب العمارة جرياً ، ولا تلتفت للخلف مهما كانت النتائج .. تصل ، وتقتحم البوابة قافزة درجات السلم دوراً فآخر .. وتفتح باب البيت داخلةً ، وتُحْكِم إغلاقه جيداً .. وتهوى إلى الأرض مستندة بظهرها للباب.. وتخفت أنفاسها وتطمئن ساكنة فى مكانها ، فيما تلاحقها أنفاس لاهثة أخرى ، ويدوِّى فى أذنيها وقعُ أقدام ثقلية فوق أرضيِّةٍ لاتراها.

مفترق

وَحْدُكَ تعبرُ شوارع الفجر الوليد .. تُؤْنسُ خطواتك تواشيحُ الفجر المتداخلة، التى تهدرها مآذنُ مدينتكَ من كلِّ اتجاه .. فى يمينِك حقيبة حياتك، التى تضمُّ - فى حنوٍّ وكبرياءٍ - دروعاً ونياشين خضراء تحرِّضُكَ على التَّراجُع .. بينها التمثال الذهبى للكاتب المصرى القديم فى جلستهِ الشهيرة، يكادُ يقفزُ من الحقيبة ويكبرُ ويكبرُ حتَّى تُطَاول قامتهُ قامتك، ليأخذك من يدِك ويعود بك إلى البيت ، تخالهُ وهو يستصرخك بلهجة فرعونية لا تعرف ترجمتها، ولكنَّكَ تفهمُ مغزاها ،فيما تُعْرِضُ أذناك عن سماع خيالات أصداء صرخاته.. وتجاهدُ نفسكَ بألاَّ تسمعها أو تلتفِتُ لصخبهِ المعترض على نواياك المقرورة .. ها أنت للمرَّة الأوَّلى تفكِّر فى كسر أنف كبريائك وتمرُّدِك الجموح ، وتُقْدِم على ذلك بالفعل.. تشدُّك للأمام رغبات العوذ والحاجة، بينما تشدُّك

للخلف رغبة وحيدة محمومة سرَّبت السَّنوات من بين يديك.. هل انتبهت مؤخَّراً للحياة المستقرّة والبيت المنفرد والزوجة .. هل انتبهت لِتسرُّب السَّنوات .. أم أنَّك تسعى لمحو مشهدٍ قديمٍ ألِفَتهُ عيناك منذ وعيك بالحياة - حيث أمُّك القابعة خلف ماكينة " الخياطة " طوال ساعات النهار وبعضاً من الليل .. ألَمْ تزاحمك الفرصُ الذهبيَّة من قبل؟! - بل وكنت محظوظاً على سائر رفاقك وأصدقائك بالوظيفة التى جاءتْك فور التخرج ببركة مؤهلك الجامعى المطلوب للتوظيف .. هل تذكُر يوم قامت الدُّنيا عليك بعد رفضك للإعارة وإصرارك على البقاء للتدريس هنا .. كنت يومها صريع ندوات الشِّعر فى دمنهور والاسكندرية كما كان " مسلم بن الوليد " صريع الغوانى .. وكانت دفقات التصفيق المقرونة بنهايات قصائدك اكسير حياتك الآملة المعنى .. وكانت أصداؤها تدفعك

وتشدُّك لمطاردة الندوات فى أىِّ مكان .. فى البداية اعتقد أصدقاؤك أنَّك رفضت السَّفر من أجل " الدروس الخصوصيَّة "..

وامتدحوا عقلانية تفكيرك ، خاصةً وأن مادَّة الرِّياضيات التى هى تخصُّصك - سوقها عامر وعليها شديد الطَّلب.. يومها قال لك أحد الأصدقاء : -

ـ عارف .. انت رفضت تسافرعشان الدروس .. شقَّة وعروسة وعربية ف سَنه .

وعندما نفَيْتَ للأصدقاء تفسيرهم هذا ، بل ورفضك للدروس الخصوصيَّة ذاتها ، تراجعوا عن عقلانية تفكيرك واتهموك بالغباء وعدم فهم الواقع ، فصِحْتَ فيهم عندئذٍ مبتسماً :-

ـ إيوه أنا غبى .. وعلى رأى المعرِّى .. وكيف " تلوموا " غبياً فى غباوتهِ وبالقضاء أتَتْهُ قلَّةُ الفطنِ .

هكذا أنت دائماً - كنت تردُّ على أصدقائك ساخراً منهم ،بل ومن نفسك بأبيات الشعر التى تحفظها .. وأسْلمَتْك السُّخرية للسُّخرية، والكتابة للكتابة، فتآلَفْتَ مع هموم قريتك، التى كبُرَتْ وامتدَّتْ بعشوائية قبيحة بعد أن أغرتها رتبة مدينة، وذُبْتَ فى شوارعها وأزقتها الترابية المتداخلة كالمتاهات ، تزاحمك طوال النهار طفولاتها المقهورة ، التى تغُوصُ فى وحول دائمة ترعى بلَلَها مياهُ الشتاء شتاءً ،ومياهُ الصَّرف الصِّحى المختنق صيفاً .. وصادَفَتْ عيناك بيوتاً واطئةً طوبيَّةً بلا كساءٍ ، تراها مخازن إجباريَّة للبشر ، نساؤها على العتبات يتحاكين أو يتشاجرن طوال النهار .. وقد سألت نفسك مراراً .." لماذا يسمُّون هذه الخرائب بالأحياء الشعبيَّة.. أليس الآخرون من الشعب .؟!! " وكانت هذه الشعبيَّة المزعومةُ هى مهد كلِّ قصائدك .. وكنت تدخل على

أمِّك بنصف راتبك فتقرأ فى عينيها جملتها الحبيسة التى سمعتها مراراً من قبل .." يا بنى زمايلك اتْجوِّزوا وفتحوا بيوت من الدروس الخصوصيَّةْ .!!" ولم تكف أُمُّك عن ترديدها ، حتى أخبرتها أن كل الأولاد فى المدرسة فى ظروف إخوتك، وأن المدودين من أبناء القادرين - قد حرَّمْتَ على نفسك التدريس الخاص لهم، لأنَّك تعرف آباءهم جيِّداً .. ولن تنسى يوم استدعاك المقدِّم " أحمد فرحات " قائد الحرس الجامعى، ليحقق معك فى قيادتك السرِّيَّة لإحدى المظاهرات، وهو يصيح فيك غاضباً :-

ـ لو كنت مش عارف أنا مين .. اسأل كبار بلدكم إللى سرقوا شركة كفر الدوار ..وحطّيت فِ خْرامهم المنفاخ عشان ينطقوا.

نعم لقد حرَّمت على نفسك التدريس لأبناء "المنفوخين " الذين صاروا الآن أثرياء بلدتك .. ويوم أخبرت أصدقائك بكلمات المقدِّم ، تأكدوا من ظنونهم ،وطلبوا منك سماع آخر قصائدك.. ولا تدرى وقتها سبباً لانطلاق لسانك بكلمات " سبارتا كوس الأخيرة ".. وعندما صفقوا لك طويلاً،قلت إنَّ الذى يستحق التَّصفيق هو صاحب القصيدة " أمل دنقل " ..وعندئذٍ استفسر أحدهم منك قائلاً :-

ـ مين أمل دنقل دِىْ .؟!

وبعد لحظات صمتك المبتسم، أجبتهُ بالفصحى ساخراً :-

ـ إنَّها ليست راقصة .

ياااااه..يا معقول .. تجرؤ الآن على ترك الأصدقاء ،بل وترك كلِّ شىءٍ هنا .. لم تزل تواشيحُ مآذن بلدتك تَهْدُرُ فى أذنيك عبر سكون الشارع الخالى إلاَّ منك .. ويجوز لك الآن أن تقف

محدِّثاً نفسك مثلما تحدِّثُ الناس بصوتٍ مرتفع .. ويجوز للسانك أيضاً أن ينطلق بأبيات الشعر، التى تطلقها كأمثال، فلن يضحك أحدٌ مِنْك أو يتَّهمُكَ أحدٌ بالجنون .. لماذا لا تصرخ ساخراً بكل ما يفور ويتأجَّج داخلك .. لماذا تحفِّز قدميك غير مكترثاً بصرخات نفسك - بعد أن هدأت صرخات تمثال الكاتب المصرى فى حقيبتك .. هل قرَّرت الخروج من قيود "الشعبيَّة " التى آلمتك طويلاً ؟!! - أنت بإيماز منها كتبت مسرحيتك الأولى، وبتحريض منها كان بطل المسرحية " عمر بن عبد العزيز " ..هل تذكَّر الآن يوم فوزها بجائزة الدولة التشجيعية ،وذيوع اسمك وصورتك فى الجرائد والتليفزيون والمجلات، وابتهاج تجمُّعات " الشعبيَّة " وافتخارها بك .. هل مللتها وأنت الذى تشقُّ شوارعها فارساً وتصافح تجمُّعاتها مختالاً بنفسك .. هل ضقت بها بعدما أنفقت قيمة الجائزة فى

تغيير أبواب وشبابيك وبلاط بيتكم القديم وأساسه الذى كاد أن يتفتَّت بالرطوبةُ ويهوى كالغبار والرَّماد .. تفاجئك الآن عربة أحد" المنفوخين " فارهةً مسرعةً ، وتمرق من جوارك للأمام ، فتسرع وراءها بخفَّة مَنْ يريدُ اللِّحاق بها .. وها هو إقْدَامُك يتجاسر ، ويخفُّ وزنك ويخفُّ آخذاً فى الانعدام، كأنَّك على وشك الطيران .. تتحرَّرُ من قيود المسافات ،وتنتبه لنفسك - فجأة - عند موقف السَّيارات .. فتركبُ للقاهرة صامتاً،وتصافحُ عيناك حقول القمح على جانبى الطريق، فيتسلَّل "صلاح جاهين"إلى خاطرك،وتهامس نفسك بهِ-" القمح مش زى الدهب .. القمح زى الفلاحين " .. وعلى الفور تهدرُ صدور "الشعبيَّة" الراكبة معك، صاخبةً تضجُّ بشكوى الغلاء والفواتير ومصاريف المدارس ..ويعاودك "جاهين" من جديد، فتحرِّضُهم به طوال الطريق هامساً- " اقلع غماك يا طور

وارفض تلِفْ .. كسِّر تروس السَّاقية واشْتم وتِفْ " .. وبعد تكرار تحريضك السرِّى للراكبين معك مرَّات تلو الأخرى ، تقتحمُك سلوى بكلمات الأمس .ويهدرْ صوتُها مُطرقاً فى أذنيكَ طوال المسافة المتبقية - " مش ح أقدر أستنَّى أكثر من كدَهْ .. حرام عليك .. سافِرْ ..اشتغَلْ دروس خصوصيَّة .. اعمل أىْ حاجةْ ".. نعم سلوى التى رفضَتْ الزواج إلاَّ بك ، وعاندت الأهل من أجلك ، فتسرَّبت السنوات من بين يديها.. سلوى التى أوحى لك حبُها برياحين ديوانك الأوَّل ، والتى من أجلها خرجت بالقرار .. تتوقَّف بك العربة ، ومعها تنقطع أصداءُ كلمات حبيبتك .. وتَنزلُ إلى مقهى "رمسيس" مرسعاً فيستقبلك صديقك وزميلك حسام ،الذى وعدك بالانتظار ومقابلتك هنا .. تصافحه .. ويطلبُ لك الشاى مُشعِلاً

سـيجارتك.. وتـسألهُ عـن مكـان المقابلـة وموعـد التعاقـد ..

يفاجئُك قائلاً ..

ـ مُشْ ح نُسَافِرْ .

ـ ليهْ .؟!!

ـ ابـن عمّـى بيـشتغَلْ فـى مكتـب الـسَّفريَّاتْ وقـالّى العقُـدَاتْ خلُصِتْ .

ـ خلصت إزَّايْ .؟!!

ـ المكتب باع العقد بـ (تَلتْ تَلاف) جنيهْ.

ـ والإعلان إللّى جهْ ف الجريدة .

ـ كان مجرَّدْ روتين شكْلى .

ـ والعمل .

ـ حاوِلْ تدبَّر المبلغ يمكن نشترى من مكتب تانى .

ويصمت صديقك آسف الوجه ، فتقف مبتسماً بالصَّمت ، فيما ترتفع يدك بكوب الشاى، لترتشف ما تبقى منه ، وأنت تودع صديقك بكلماتٍ متعجِّلة ، عائداً إلى موقف سيارات بلدتك القابع خلف الميدان .. تقودك رغبةٌ واحدةٌ محمومة للأمام .

عرس آخر

حين اعتدلتُ لتحية الضيوف رأيته فجأة ، يقف فى آخر القاعة حاملاً حقيبة سفره ، يلوح لى بيمناه مبتسماً .. فى البداية لم أصدِّق عينىَّ ، ولكن عند ارتباك يدى بالرد عليه التقت عينانا على البعد .فتأكدت أنى لست واهمة وأنَّهُ هو ، هو بالفعل .. تغمرنى الآن ابتسامته الحبيبة بفيوض سحرها ، وأرى فرحة عينيه تكاد تطير وتخترق الأجساد إلى المنصَّة كى تصافحني وتضيئنى ، وأنا أتسلَّم براءة تخرُّجى وتفوُّقى على دفعة الطب .. ياااه.. لم أكد أستوعب حضوره حتى داهمنى زلزال ما اعتزمت فعله بالفد .. وارتبكت أترنَّح بين رغبتى فى النزول أو البقاء جامدة كالصخرة أمام المنصة .. أتمزَّقُ صامتة بين لهفتى عليه بعد غياب عام . وغيابى عنه - الذى سوف يكون حتماً بعد ليلة ..

فكيف أقضى هذه الساعات معه .؟ ! ! .. أوشكت أن أسأل صارخةً في ميكرفون الحفل - " لماذا يجئ الآن ويوقظ أحاسيسى بعدما أخمدتُ بإرادتى كل معانى الوجود داخلى وخارجى؟! "- نعم.. واستسلمت راضية لقرار الغد ، وكنت فقط بجسدى معتم الحواس فى طقوس الحفل ، لا أشعر بأحد أو بشئ رغم حرارة التصفيق ورحابة المكان بالزحام .. لماذا يجئ الآن؟! .. لم أقو حتى على الصراخ ، وحاولت أن أتمالك فازدتُ ارتباكاً .. وتشظَّيتُ وأنا أقاوم الربكة كى أنزل الدرجات سرعة إليه .. لا أعرف ما الذى لاحظه على وجهى ، وأنا أمد يدى بالسلام قبل عناقنا وانفجار رأسى بالبكاء على صدره المبتهج بحفلى .. سألنى مفزوعاً ، فأخبرته أنَّها دموع الفرح ، ولكنَّه ارتاب وبدا غير مقتنعاً بحالتى ، ولاذ بالصمت و أسلمته الهواجس للظنون ، إذ تؤكِّد ذلك- الآن- نظراته لى،بعد انسحاب حفاوته فجأة فور خروجنا

من الحفل .. فهل يظنُّ تمرُّد الطبيبة التى أصبحتها ؟! .. وهل أتمرَّد على منْ ترك التعليم لإعالتى ، وصار تاجراً هناك فى مصر؟! .. للمرة الأول، أسير بجواره جسداً بلا روح .. فهل يتوجس الآن فى كائن آخر غير الذى يعرفه .. لعنت قسوتى عليه .. وتمنيت لو أنفجر الآن فرحة بلقائه ، ولكن تمنعنى إرادة لا تلين بزفاف آخر سوف أفاجئ به الجميع ، عند توقيعى بلا تردد على قرار الغد .. يضم يدى فى كفه ،فيعادونى الارتباك وأخشى أن أتجاوب مع خدر لمسته فأضعف وأتمادى وأتردد فأتراجع عما اعتزمت .. أهُم بسحب يدى منه ، ولكنى أتراجع وألعن قسوتى ثانية .. فكيف أبخل بها على توأمى وقد جاء من مصر قاطعاً الأميال كى يشاركنى فرحة - لا يعرف أننى أودعتها ثلاجة الشعور .. يضغط يدى فأتشظى. وأوشك أن أسأل صارخة - لماذا لا أجرؤ على القسوة رغم سطوة إرداتى بقرار الغد الذى لا

رجعة فيه؟! .. لا أدرى الآن كيف سحقتنى اللحظة فتركت له يدى .. وصافحت وجهه الحبيب بابتسامة الحياة .. فطرنا معاً نرفرف فى شوراع العشاق وحدنا .. ونهفهف كنسمتين رقيقتين على خد صيف قائظ بالرمضاء .. أكاد أسمع همسات كفه النابض بكل لغات الحب فى يدى .. يداهمنى الغد فأوشك على البكاء ، وأهم بالكلام وأتراجع فيتأملنى حائراً .. ويهم هو الآخر بسؤاله المرتاب عن أحوالى التى يراها ، ولا أدرى لماذا يتراجع مثلى .. هل استراح كما استرحت أنا إلى الصمت-الذى يقودنا الآن ويسلمنا لخيالات وذكرياتى تتوالى ، وتزدهى فى مواكب الخطى .. أبتعد به ومعه إلى أقاصى مفارق الزمان والمكان .. وأرانا نَشب معاً من جديد فى حدائق الصِّبا .. نردّد الآيات خلف ملقن الـ " كُتَّاب " فى صباحات إجازة الصيف .. تسرقنا شوراع الظهيرة أنا وهو وأخى مروان؟ فنتشاجر مع أبناء الجيران .. وعندما ينفجر

الصياح تخرج الأختان - أمُّهُ خالتى وأُمّى خالته - وتنهيان بالنصح الحنون براءة اشتباكنا ، فنعود للعب حتى أفول شمس الغروب .. ثم نفترق إلى بيوتنا جائعين للعشاء أو النوم .. وعند اقتراب أيام المدرسة يأخذنا زوج خالتى أنا وهو ومروان ليشترى لنا ملابس العام .. ويضفّر خطواتنا الطريق إلى المدرسة فى الصباح.. وعند الرجوع فى الظهيرة أعطيه قطعة الحلوى التى لى، فيشطاط غيظ مروان منه .. وإن غاب يوماً تسألنى مدرسة الفصل أين توأمك ، فينظر الجميع إلى مقعده الخالى .. ويهرع دائماً إلى بيتنا كى يلوذ بصدر أمى هارباً من عقاب أمه ، كما أفعل أنا لائذةً بصدر خالتى .. يااااه.. لقسوة خاطرى وأنا أفكّرُ الآن فى سحب يدى من يده ومصارحته بزلزال الغد .. كيف تهون على الروح مشاعر التوحُّد التى لازمت وعينا إلى الآن .. ليتنى أقوى على الصراخ .. أودُّ لو تنشق الأرض وتبتلعنى ، ولكنها لم تنشق

..وها أنا أبتعد به ومعه وتأخذنى الصُّور .. فأرى وجهه الحبيب يغرق فى خجل المراهقة ، عندما تنكشف للأهل أسبابه التى كان يختلقها للقائى ، كما كنت أغرق أنا أيضاً عندما تنكشف أسبابى المختلقة - وعندئذ لا نسلم دائماً من ابتسامات ماكرة تطفو على وجوه الأهل والجيران .. وتنحسر اللقاءات بعد فوران أجسادنا ونصائح الأهل للبنات .. وتأخذه منحة الدراسة إلى مصر ويتركنى وحدى غارقة فى وطأة سواد الفقد .. أفرغ أحزانى فى ساعات المذاكرة .. وأنتصر على الفقد مرات بالعناد ، ومرات أخرى يعاودنى السواد ،فأدرك أن قلبى مرهون للحزن .. ويجيئنى دائماً كالربيع ولكن فى إجازة كل صيف - فتورق به أشجار الروح من جديد .. ونخرج معا آملين فى شوراع بلا نهاية .. وعندما نرتجف بتواتر الجنازات فى أسئلتنا ، يرانى واجمة بوطأة السواد فَيبُثُّ فىَّ طاقات جديدة من العناد والتحدِّى ، تكفينى

طوال عام قادم من الغياب والفقد .. وتجئ رسائله دوماً فى أوقاتها نابضة بالحياة ، فأزداد أملاً فى زوال وطأة السواد ..لكنه اليوم لم يكتف بالرسائل بل جاءنى بنفسه .. فكيف أكافئ حضوره المفاجئ بغيابى الذى اعتزمت .؟!!.. وهل أجرؤ على سحب يدى حتى يظنَّ زهدى فيه وبلادتى أو تغيُّرى ؟!.. ليتنى أستطيع حتى يضيق بى ويتركنى، ذاهباً إلى بيته ، وأُسرع أنا لأنجز ما تبقى ،استعداداً لغياب الفد .. حاولت ولكنِّى لم أقو على سحب يدى ، بل ضغطها هو مبتسماً ، فأوشكت أن أنفجر بالضحك ، ساخرة من قوتى وضعفى .. نعم فلم أزل قوية بالقرار وضعيفة بأشواقى ولهفة روحى لنسائم عشقه الفياض ..هل أُخبره بقرارى فأتحرَّر من سجن هذه اللحظات المريرة بروعتها وحزنها؟!..لا أدرى إن كان سيفهمنى أم ينفجر فىَّ ويلازمنى ليمنعنى فيزداد مأزقى تعقيداً .. تخيَّلتُ وقع الكلمات عليهِ،

فأيقنت أنها -بالتأكيد - ستقتله.. وتراجعت بعدما هممت بالكلام فلاحظ ارتباكى وتردُّدى فسألنى :-

ـ فى إيش حبيب .؟!!

ـ لا .. لا .. مو .. شى .. بحبك ساكت .

ويبتسم .. فأموت وأتشظى من جديد .. وينتفض فىَّ قرار الفد بقوة .. فأقاوم جوع الروح إلى همساته .. وأتأمل وجهه المرتاب صامتة فأدمع .. ويسمح ببطن كفه الملهوف دمعاتى ويضمنى هامساً سائلاً :-

ـ دى باقى دموع الفرح .؟!!

أتمالك وأؤكد بانحناء رأسى وأستدعى ابتسامتى لأصافح بها وجهه الحبيب ، ولكنه يعود مرتاباً فى تفسير ابتسامتى، فيزداد حيرة بى ، ورغماً عن حيرته، يعود كفُّه النابض بالحب، هامساً فى يدى من جديد.. وأهُمُّ بالكلام ويَهمُّ ويتذكَّر رغبتى فى

فى السكوت فيتراجع .. ويقودنا الصمت إلى خيالات أخرى .. فأبتعد به ومعه .. وأراه هناك فى الصالون بجوار أمى ، يلحُّ عليها متعجِّلاً موعد زفافنا ، وذهابى معه إلى مصر ليرعى تجارته هناك .. ويذكِّر أمى بانقضاء آخر مبررات التأجيل بعد تخرجى .. وأقف أنا مستمعة لأمِّى وهى تصدمهُ بمبررها الجديد قائلة له : -

ـ حين يرجعوا رجالنا للبيت .

ولا أدرى عندئذ إن كنت سألعن الغياب كعادتى - أم سألعن العجز ووطأة السواد التى نأت بأبيه وبأخى مروان من بعده ، وفرضت علينا فراق الأحبة ،الذى لا أرى أجلا لانقضائه ..يااااه.. ماذا لو صدمه الآن غيابهما ؟!.. وكيف سأكون أمامه عندما يكتشف كذبى فى نقل أخبارهما عِبر رسائلى طوال العام ؟!.. هو لم يتعود منى سوى تزيين الرسائل بالصدق وتفاصيل التفاصيل ..

فهل أحتمل أن أراه فاقداً ثقتى بعد عمر من التوحد والبوح .. وهل سيلتمس لى الأعذار أم ينفجر فى وجهى قبل أن أنفجر أنا معلنة عن قرارى ؟!.. هو اختار حُرَّاً - عندما ترك التعليم آملا فى خلاص آخر .. فكيف لا أكون حُرَّة فى اختيارى - ولو لمرة واحدة فى حياتى .. يُسرع مقترباً بى من البيت فأتعثر مرتبكة وأشرد بقدمى فى اتجاهات أخرى ، ربما أُفسِحُ الوقتَ لتصرُّف ما- أو قول يأتى بالفكاك من هول هذه اللحظات قبل أن أموت بحيرتى .. يبتسم .. فأبتسم ويبكى القلب وتختنق الروح .. فأوشك على انفجارى بالبكاء أو إعلان القرار مهما كانت النتائج.. وأهم بالكلام ولا أتراجع هذه المرة فيتحشرج صوتى هامسة :-

ـ أررر ... رجوك .

ـ ايش .. ايش حبيب . ؟!!

ـ روح لخالتى تو .. وحنتظرك باكر ببتنا .

ـ مالك حبيب .. أنا مو فاهمك اليوم .

ـ روح حبيبى .. وباكر تفهم .

ـ راحتك .. أنا بريدك بخير وبس .

وأُصافحه بابتسامة صافية ، لا أعرف كيف خرجت فاطمأنَّ بها، وهو ينحرف إلى بيت خالتى مبتعداً .. وانطلقت أنا أسابق نفسى كى أعيد ترتيب كل شئ .. أُقدِّم موعد الزفاف فى بطاقات الدعوة .. وأتناسخ فى كل الاتجاهات لأوزعها بسرعة على ما أستطيع من الأهل والأصدقاء والجيران .. أُهاتف كل الأحِبَّة المنتشرين بين المحيط والخليج لكى أخبرهم .. أبثُّ بصوتى رسالة فريدة له ، لعلَّهُ يجئ ويسمعها من مطرب الحفل ، فيقبل أعذراى وتذوب وطأة السواد فى حلاوة الذكرى .. وها أنا أُفاجيء حائك فستانى بالحضور وتقديم الموعد ، وأجلس أمامه منتظرة، وهو يتمجَّل

القصَّ والمخيط تنفيذاً لرغبتى .. أتدخَّل مضيفة بعضاً من لمسات الأنثى على الثوب .. وها هو حائكى ينتهى ، فأرتدى فستانى، ويبدو أروع ما يكون .. وأترك ملابسى الأخرى لدى الحائك ،وأخرج للشارع مسرعة، بينما يبتسم هو دونما دهشة ولا يوقفنى أو يحتسب لوثتى ،فأنطلق مبتعدة عنه .. تفيض قدراتى وإرادتى عن كل حد .. وأُحاولُ أن أُغْمِض انتباهى عن وجه حبيبى وعن كل شئ حتى لا أتردَّد.. ها أنا الآن خفيفة كطيف، تُسْكِنُنى خطاى فى غد الغد .. وتتلاشى المسافات السحيقة بين المحيط والخليج حتى تتقلَّص بحجم صفحة بيضاء - صفحة تدعونى لكتابة أقدراى الجديدة .فأُملى على يدى ما أريد حتى تمتلىء الصفحة .. وأضغطُ زرَّ فستانى الديناميت آخذة بثأرى من هول وطأة السواد ، وأنا أوقع عند طرف الصفحة باسمى - اسمى أنا "وفاء إدريس".

الفهرس

القصة	الصفحة
١. غيبوبة.	٥
٢. قنديل اللحظة.	١٧
٣. اوتجراف.	٣١
٤. أول هاتف.	٤١
٥. مسافة ثابتة	٥١
٦. كونديشن.	٦٣
٧. خارج اللعبة	٧٩
٨. شرفة وحيدة للأيام.	٩٥
٩. سيوف.	١١١
١٠ .إيقاع الوصايا	١٢١
١١. مفترق	١٣٣
١٢ .عرس آخر	١٤٧

رقم الإيداع ٢٠٠٦/٢٢٩٧١

الترقيم الدولى I.S.B.N

977-6143-38-5

الناشر دار شريف للطبع والنشر